المدركات الحسية والتصورات العقلية في التجريبية الراديكالية "عند وليم جيمس "

اعداد

د. فوزية عبدالله شمسان

استاذ مساعد /كلية الآداب والعلوم الانسانية-جامعة صنعاء

المقدمة:

عرفت البراجماتية بأنها أنزلت الحكمة من إطار التفكير النظري المجرد الى ميادين الحياة العملية، بما أحدثته من تغيير هائل في طبيعة المشكلات الميتافيزيقية التقليدية .مستندة في ذلك الى أهمية التجربة وقيمة النتائج المثمرة في حياة الانسان، بعيدا عن أي وثوقيه أو عقائد قطعية جازمة. و تعد فلسفة "وليم جيمس"*التي أطلق عليها مسمى "التجريبية الراديكالية" إضافة نوعية لملامح التيار البراجماتي ، سعى من خلالها الى إقامة علاقة وثيقة بين الميتافيزيقا والعلم، تقوم على التعاون وتعيد الفلسفة الى معترك الحياة العملية .وقد أدى موقفه هذا الى إثارة الخلاف بينه وبين بيرس* ،الذي احتج على توسعه في تطبيق المنهج البراجماتي ،لأنه أراد بناء صرح فلسفة علمية تستخدم المنهج بوصفه قاعدة منطقية - تكون فيه أفكارنا واضحة بما تحققه من نتائج لا تتجاوز نطاق الخبرة الحسية -بينما كان غرض جيمس إيجاد صدقاً فلسفياً يمكنه من تبرير الاعتقادات المفارقة للتجربة دون أن يتخلى عن العلم .مما دفع بيرس الى إعلان اختلاف مذهبيهما، وكان رد جيمس عليه :"..أن فلسفته التجريبية الراديكالية مذهب قائم بذاته، ولا يحتاج الى سند ،وفي وسع المرء أن ينبذه كليا، ومع ذلك لايزال براجماتيا."[1]وقد ساهم مصطلح راديكالية الذي ميز به جيمس فلسفته عن التجريبية التي سادت الفكر الفلسفي الحديث، في إثارة التساؤلات حول المعنى الذي قصده في فلسفته وما الغرض منه.

تستند فلسفة جيمس التجريبية الى رؤية تعددية للعالم وترى أهمية المدركات الحسية بوصفها عالم من الخبرة الخالصة التي يتألف منها كل شيء. وتؤمن بالوجود الحقيقي للعلاقات. وإذا كانت التجريبية تستبعد سلطة المنطق النظرية فإن جيمس يؤكد على أهمية المفاهيم و التصورات في إثراء وتوجيه الحياة الانسانية .ويقدم رؤية مختلفة لطبيعتها تربط بينها وبين الاحساسات على نحو وثيق .ويعرض جيمس في سياق فلسفته لرؤية جديدة لطبيعة الوعي ودوره، كما ناقشت فلسفته التجريبية طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع ،وقدمت نظرية جديدة في الصدق. أما عن طبيعة نسقه الفلسفي وصلتة بالمنهج البراجماتي فقد أشار الى أن البراجماتيه أمدته بالمنهج وأن أخذه بالتعددية أمده بهندسة البناء ،بينما أعطته التجريبية الراديكالية مادة البناء.

اسباب اختيار موضوع الدراسة :

نالت البراجماتية حظا وافرا من البحث والتدقيق من خلال أبرز أعلامها -جيمس- الذي حظيت بعض كتبه بالترجمة الى اللغة العربية. إلا أن تكوين رؤية واضحة عن فلسفته ظلت غامضة نوعا ما؛ لأن بعض الدراسات عنه لم تعرض لفلسفته التجريبية*، والبعض منها مر عليها مرور الكرام .كما ساهم وجود تنوع في ترجمة مصطلحRadical، في عدم وضوح المقصود بها بدقة،

---

* William James (١٨٤٢-١٩١٠م)،فيلسوف امريكي ،من أعلام الفلسفة البراجماتية، نال الدكتوراه في الطب عام ١٨٦٩م ،ومن أوائل المهتمين بعلم النفس؛(انشأ أول معمل لتجارب علم النفس عام ١٨٧٦م). انطلق من ابحاثه في علم النفس الى أفاق الفلسفة ،من مؤلفاته؛ مبادئ علم النفس (في مجلدين)١٨٩٠م، إرادة الاعتقاد ١٨٩٧م ،تنوع التجربة الدينية "دراسة في الطبيعة البشرية" ١٩٠٢م ، البراجماتيزم ١٩٠٧م ، معنى الصدق ١٩٠٩م، عالم متعدد١٩٠٩م ،ونشر بعد وفاته: بعض مشكلات الفلسفة ١٩١١م ومقالات في التجريبية الراديكالية١٩١٢م، التي عرفت بها فلسفته.

* Charles Sanders Peirce (١٨٣٩-١٩١٤م) فيلسوف امريكي، اهتم بدراسة المنطق والرياضيات والعلوم . وعرف بأنه مؤسس التيار البراجماتي في دراسته "كيف نوضح أفكارنا"١٨٧٨م ،ومن مؤلفاته كذلك: دراسات في المنطق١٧٧٣،ما الذرائعية ١٩٠٥م، ونشأت الذرائعية ١٩٠٥م.

[1] وليم جيمس، البراجماتية ، ت:محمد على العريان ،تقديم: د. زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة –القاهرة،٢٠٠٨م ،ص:١١

* وذلك في بعض الكتب التي جاءت تحمل عنوان؛ تاريخ الفلسفة أو مقدمة في الفلسفة المعاصرة و بعض الموسوعات الفلسفية.

فنجد مثلا: د. يوسف كرم ،يترجمها بمعنى "البحتة " ،وترجمها د. محمود زيدان "بالأصيلة "متفقا في ذلك مع ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي لها، وترجمها د. فؤاد زكريا بمعنى "الجذرية". كما منح المصطلح ترجمات أخرى مثل: "خالصة"، "متطرفة"، بينما اكتفى البعض بتعريب المصطلح وكتابته كما هو الراديكالية*. بالإضافة الى أن وجود تنوع** في تعريف مفهوم التجريبية أدى الى إحداث نوع من الإرباك والغموض في إدراك ما قصده جيمس في تجريبيتة ومدى صلتها بالتجريبية التقليدية التي رسخت في الأذهان لفترة طويلة. وأخيرا لوحظ أن موقف جيمس من المدركات الحسية والتصورات*** لم يكن محل اهتمام أغلب الدراسات التي عرضت لفلسفته مع استثناءات محدودة نجدها ضمن كتاب د. محمود فهمي زيدان، "وليم جيمس".

وتهدف هذه الدراسة الى توضيح رؤية جيمس "للتجريبية الراديكالية"، وما الذي تميزت به فلسفته ؟ ومعرفة موقفه تجاه المدركات الحسية والمفاهيم أو التصورات العقلية، وما وجه الصلة بينهما ؟ وما موقفه من العقل ودوره ؟وماهي أوجه الاتفاق والاختلاف بينه وبين تجريبية جون لوك التي سادت الفكر الحديث؟ وهل تعد فلسفته التجريبية مبحثا في نظرية المعرفة أم لا ؟

وفي سياق الإجابة عن التساؤلات السابقة استخدم المنهج الوصفي والتحليلي الى جانب المنهج المقارن ،حسب ما تستدعيه طبيعة الدراسة. وقد شمل الموضوع عدد من المباحث : الأول بعنوان: الرؤية التجريبية في الفلسفة "جون لوك" و "وليم جيمس". و المبحث الثاني : موقف جيمس من المدركات الحسية وأهميتها ،و المبحث الثالث: طبيعة المفاهيم العقلية ودورها ، ويتضمن المبحث الرابع موقف جيمس من فكرة الثنائية ومفهوم الصدق بغرض الإلمام بوجهة نظره حول طبيعة العلاقة بين المدركات الحسية والتصورات العقلية .وأخيرا التعقيب وقائمة بالمراجع.

المبحث الأول :الرؤية التجريبية في الفلسفة (الحديثة والمعاصرة)

عرفت التجريبية Empiricism في العصر الحديث كنظرية في المعرفة، نتجت عن الاكتشافات والتطورات العلمية حينها، وما صاحبها من ظهور لمناهج جديدة في البحث والتفكير**** ،قلبت النظرة التقليدية للعالم الطبيعي رأسا على عقب، وأدت الى التفكير في إقامة علم للطبيعة البشرية يرتكز على الأسس نفسها التي قام عليها العلم الطبيعي الحديث آنذاك ويؤكد على التجربة الحسية كأساس للمعرفة. وقد عبرت الفلسفة التجريبية عن رد فعل معارض للاتجاه العقلي -عند ديكارت و ليبنتز - الذي أنكر أي دور للتجربة، وأكد على أن فهم الانسان يعتمد على عدد من المسلمات العقلية، ورأى بأن الذهن لا يدرك الأمور المحسوسة مباشرة وإنما يعرفها عن طريق الأفكار التي تمثلها*،وتقوم مقامها وتجعلها ماثلة أمام الذهن. "إن جميع أنماط التفكير التي نلاحظها في

---

* لا يعني ذلك عدم الدقة في طبيعة الترجمات وإنما للإشارة الى أن تنوعها ساهم في عدم وضوح المعنى الذي أراد وليم جيمس أن يظهره في فلسفته (خاصة عند طلاب الفلسفة).ولذلك رأيت أن استخدم المصطلح كما هو(راديكالية) دون ترجمة ،كما ذهب البعض ،لأترك للقارئ تصور المعنى الذي يجده قريبا من الفهم.

** تنوع التعريفات يعود الى تنوع المواضيع التي عرضها جيمس في فلسفته؛ مثل مذهبه في تفسير العالم "مذهب التعدد"، وتصوره لطبيعة العلاقة بين الذات والموضوع، وتفسيره للعلاقات بين الوقائع التجريبية ومشكلة الصدق.

*** عرض لموقفه منها في كتبه: البراجماتية و بعض مشكلات الفلسفة.

**** بدأها فرانسيس بيكونFrancis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦م) ،في تأكيده على أهمية التجربة والملاحظة ووضعه للمنهج الاستقرائي Induct in ،واعطائه مكانة سامية على حساب التأمل العقلي.

* نظرية الأفكار التمثيلية التي قال بها الديكارتيين وأيدها مالبرانش وغيره.

أنفسنا يمكن ارجاعها الى نمطين عامين: أحدهما الادراك بالذهن، والآخر التصرف بالإرادة. وعلى ذلك فالإحساس والتخيل بل تصور الأشياء العقلية المحضة ليست إلا أنماطا مختلفة للإدراك .."[٢] ونشير هنا الى أن بعض العقليين لم يلغوا دور الحواس في تفسيرهم لطبيعة المعرفة ،ولكنهم أعطوا للعقل الدور الرئيسي فيها ."نقطة الخلاف الأساسية هي أن التجريبية لا تستنبط الطابع العام والضروري للمعرفة من العقل وإنما من التجربة."[٣] ويعد جون لوك أول من وجه النظر الى مشكلة المعرفة باستخدامه للمنهج التجريبي في بحثه لها ،والقول بأهمية التجربة والتعدد والاعتماد على الخبرة الحسية.

أولا- تجريبية جون لوك:

ناقش لوك في كتابه "مقال في الفهم البشري" طبيعة الفهم الانساني، وكيفية حدوث المعرفة ،ووضح فيه عناصر الفهم البشري من احساسات وادراكات وأفكار وكلمات .وذهب الى أن الخبرات البشرية متعددة ومختلفة من مجتمع الى آخر، وأن هناك تنوع في القيم الأخلاقية والمعتقدات الدينية. وليس هناك إجماع بشري على وجود أفكار فطرية واحدة، وأن ما عرف بأنه فطري يختلف من شخص الى آخر. ويدلل على ذلك بقوله إن جميع الاطفال ليسوا على دراية بأي من تلك المسلمات العقلية وبأن عقولهم عند الميلاد تشبه الورقة البيضاء، والتجربة هي من تزودهم بالمضمون الفعلي أو بالأفكار. "إن معرفة أي انسان...لا يمكن أن تتجاوز حدود خبرته."[٤] ولا يمكن للإنسان فهم حقيقة أي مسلمات عقلية إلا بتجربته لأمور معينه وبإعمال قدراته العقلية وتمحيص الأفكار التي تجول في عقله. فما الذي تعنيه التجربة عند لوك؟

لا يشك لوك بوجود العالم الخارجي الذي ندركه بواسطة الحواس، فنحن حينما نشاهد ورقة بيضاء أثناء الكتابة عليها، لا يمكن أن نرتاب في وجودها، كما لا يمكننا أن نرتاب في فعل الكتابة أو حركة اليد التي تقوم بفعل الكتابة. ويميز لوك بين الصفات الأولية والثانوية في الأجسام؛ الصفات الأولية قائمة فيها ومستقلة عن ادراكنا ولها موضوعيتها، بينما الصفات الثانوية لا تقوم في الأجسام ذاتها وإنما تعتمد في جانب منها على طبيعة الذات وحواسها. ونحن لا نرى من الأجسام سوى ظواهرها أو ما يبدو لنا منها. "..يتمثل ما يبدو لنا منها في أفكارنا التجريبية كما يتمثل في أن معرفتنا للأشياء غير مباشرة عن طريق هذه الأفكار. كل ما نعرفه عن الأشياء فكرتنا المركبة عنها، أما الأشياء في ذاتها وطبيعتها فلا معرفة لنا بها."[٥] لأن العقل الانساني في نظر لوك محدود المعرفة بعالم الظواهر، ويعجز عن معرفة ما ورائه.

فعندما ندرك شيئا ما –كالطاولة مثلا-فإن ما يحدث هو أن هذا الشيء يترك انطباعات معينة على حواسنا كالصلابة والبرودة والشكل واللون...الخ. بينما لا يمكننا ادراك الشيء في ذاته على الاطلاق. تنتقل بعد ذلك الانطباعات الحسية بواسطة الأعصاب الى الدماغ الذي يتلقاها بوصفها احساسات مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض." ..إن أي خبرة في نظر لوك لابد أن ترتد في

---

[٢] ديكارت، ،مبادئ الفلسفة، سلسلة النصوص الفلسفية(٦) ت:د.عثمان أمين، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة،عام١٩٩٣م ،ص:٧٦.

[٣] م. روزنتال ،ن يودين، الموسوعة الفلسفية، وضع لجنة من الاكاديميين السوفييت، ،ت: د. سمير كرم ،دار الطليعة-بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٩٧م،ص:١١٠

[٤] دنكان بريتشارد ، ما المعرفة؟ ت: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة (٤٠٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ،٢٠١٣م،ص:١٢٤

[٥] د. محمود فهمي زيدان، نظرية المعرفة "عند مفكري الاسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين"، دار النهضة العربية- بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٩م،ص:٦٣

أساسها الأول الى الإحساس وتعتمد اعتمادا مباشرا على التجربة الحسية وهي ليست أكثر من تلقي الانطباعات الحسية ونقلها الى الصفحة البيضاء، أي العقل "[٦].ونلاحظ هنا أن لوك على الرغم من اعتراضه على وجود أفكار فطرية أو مبادئ أولية في العقل إلا أنه لا يقلل من شأن القدرات العقلية للإنسان ؛ فالعقل بوصفه صفحة بيضاء يقوم بدور سلبي يقتصر على استقبال الانطباعات الحسية التي تمده بها الخبرة الحسية ،أما دوره الايجابي فيتمثل في ربطه للانطباعات الحسية ،وتكوين الصور الذهنية أو الأفكار. "إنكار لوك للأفكار والمبادئ الفطرية ينصب على هذه المبادئ والأفكار نفسها لا على قدراتنا العقلية، وإنكاره لها هو إنكار أسبقيتها على التجربة الحسية وليس إنكارا ليقينها ووضوحها بذاتها، لأنه يرى أن لدينا من الإمكانات والقدرات ما يسمح لنا بإدراكها ومعرفتها بهذه الدرجة من الوضوح والتسليم بها."[٧]

وتشمل التجربة عند لوك جانبين أحدهما حسي والآخر باطني "يقسم لوك التجربة الى مقولتين: أولا الاحساس أو الادراك الحسي للأشياء الخارجية، وثانيا: التفكير أو النشاط الذي تستطيع الذات بواسطته ملاحظة حالتها الذهنية ومشاعرها وأفكارها. وكل تجربة بشرية تندرج عند لوك تحت هاتين المقولتين، غير أن الثانية وهي التفكير الانعكاسي أو التأمل تقوم على أساس الأولى وتنشأ منها ،وأعني بها الإحساس.."[٨]

والفكرة عند لوك هي أي موضوع يستحوذ على فهم الانسان وتفكيره." هي ما يدركه العقل أو الموضوع المباشر للإدراك الحسي، التفكير، أو الفهم "[٩] .وتنقسم الأفكار عنده الى نوعين حسب موضوعاتها: أفكار الإحساس وأفكار الانعكاس؛ الأولى تأتي من ملاحظة العالم الخارجي بواسطة الحواس، ويصفها بأنها أفكار بسيطة، يستقبلها العقل رغما عنه، والثانية تنشأ عندما يلاحظ الذهن ذاته وتوصف بالأفكار المركبة– تتألف من تجمع الأفكار البسيطة- وهي من يصور العالم ويمثله . ويذهب لوك الى أن هذه الأفكار هي التي تشكل مصدر المعرفة أو مادة المعرفة الوحيدة للفكر البشري. "..لا نستطيع أبدا خلال تفكيرنا وتأملنا أن نتجاوز حدود ما اكتسبناه عن طريق الإحساس و الانعكاس."[١٠] وهناك ثلاثة أنواع من الأفكار المركبة: جواهر SubstancesوأحوالModes وعلاقاتRelations .وفيما يخص رؤيته للعلاقات ذهب الى أنها "تتكون في الذهن بناء على مقارنة فكرة مع غيرها من الأفكار."[١١] لكنه رأى في وقت لاحق أن العلاقات بين الأفكار ليست أفكارا مركبة وليست قائمة على التجربة ،وإنما هي قائمة بذاتها وتنشأ عن عملية المقارنة الذهنية ."..إن العلاقة بالنسبة للوك مجرد رابطة ذهنية من صنع العقل وليس لها وجود في الواقع. فاذا قلت إن الكتاب فوق المنضدة فليس هناك في الواقع الحسي سوى كتاب ومنضدة فقط ،بينما لا توجد في الخارج فوق أو تحت أو أعلى أو اسفل ."[١٢] ومن ثم فإننا

---

[٦] د. فاروق عبد المعطي، جون لوك "من فلاسفة الانجليز في العصر الحديث"، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى،١٩٩٣م،ص: ٥٤.

[٧] د انصاف حمد، المعرفة والتجربة "دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم"، سلسلة قضايا فلسفية(٣)، منشورات وزارة الثقافة-سورية، دمشق ٢٠٠٦م ،ص:٨٦.

[٨] جون ديوي، ، أنواع من التفكير، ت: فاطمة الشايجي، مراجعة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام الدولية للطباعة-القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ،ص:١٤٤ .

[9] John Locke ,An Essay Concerning Human Understanding, Scribd (موقع الكتروني),Book II ch: VIII-8, p:101

[١٠] رسل، حكمة الغرب "الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ، ت: د. فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد(٣٦٥)،الجزء الثاني، الطبعة الثانية،٢٠٠٩م، ص:١٠٠ .

[11] John Locke ,An Essay Concerning Human Understanding ,Book II, ch: XII- 7,p:132

[١٢] د. فاروق عبد المعطي، جون لوك" من فلاسفة الانجليز في العصر الحديث"،ص:٦٩.

نحصل على المعرفة -في رأيه- عن طريق الادراك ."ادراك ترابط أفكارنا وتوافقها أو اختلافها وتعارضها، فما يدركه الانسان-بل حتى ما يفكر فيه-مباشرة ،يكون دائما عبارة عن أفكار بعينها موجودة في ذهنه، وأي استنتاجات عامة حقيقية يتوصل اليها الانسان لا تصح إلا بقدر ما تتفق معها علاقات أخرى بعينها في الطبيعة ،أو في فكر أناس آخرين."[١٣] وهكذا يبين لنا لوك أن كل معرفة أو معتقد يعتنقه المرء لابد أن يقوم على التجربة "إن صميم التجريبية يتمثل في كون الاحساس والادراك هما اللذان يمونان الذهن بالأفكار، ومعنى هذا أننا إذا عجزنا عن الاحساس والادراك لاستحالت المعرفة."[١٤] والأمور التي تقف وراء حدود التجربة لا يمكن للمرء معرفتها، والنظر العقلي فيها قد يؤدي -حسب لوك- الى الوهم أو الظلال. "إن لوك يصر على أنني استطيع أن أقول كيف حصلت على أفكاري. إنه قد يتساءل فيما إذا كانت أفكاري يمكن تحليلها على ضوء تجارب واضحة، وبسيطة ودقيقة ،فإذا لم يكن ذلك ممكنا ،فسوف يقول إن موقفي هش يصعب الدفاع عنه بغير أساس، ومن ثم فهو يصل الى معرفة لا يعتمد عليها."[١٥]

وقد ساهمت رؤية لوك لدور الذهن في توجيه النقد الصارم له من قبل أتباع المذهب المثالي وتأكيدهم على عدم كفاية المحسوسات وحدها في تحصيل المعرفة، وأنها بحاجة الى فاعل داخلي يقوم بعملية الربط بينها، وتكوين أفكار عامة ."..اضطرت التجريبية للاعتراف بأنه يوجد في التجربة الخالصة شيء أخر غير الحواس ومدركاتها، ذات عارفة قادرة على التركيب والفعل ،وعبر عملياتها المتعددة والمختلفة نحصل على المعرفة بمعناها الشمولي.."[١٦]

لا شك أن تجريبية لوك كانت بحثا مفصلا في المعرفة، استخدم فيه المنهج التجريبي. وقد تركت تأثيرا كبيرا على من جاء بعده من الفلاسفة. فقد أخذ هيوم بمذهبه وعمل على تطويره في كتابه "رسالة في الطبيعة البشرية ". ولكن فهمه للتجربة جاء على نحو أضيق من معناها عند لوك ،حيث أكد على جانبها الحسي فقط وأهمل جانبها العقلي الذي يعطي للعقل نشاطاً ايجابياً في عملية المعرفة .ورأى أن وظيفة العقل تقتصر على مجرد تلقي الانطباعات الحسية من الخارج وما تخلفه تلك الانطباعات من صور ذهنية في العقل .يقول: "إن كل مواد التفكير مستمدة من الحواس الخارجية أو الباطنة، وما يخضع للذهن أو الإرادة إنما هو خلطها وتركيبها وحسب "[١٧]. واتفق معه في ذلك كوندياك الذي أرجع جميع معارفنا وقدراتنا الى الاحساس ."ليس الأنا إلا مجموع الاحساسات التي يشعر بها والاحساسات التي تذكره بها الذاكرة.. فنحن لانعرف ماهية الأشياء والعلل الأولى، وإنما فقط الظاهرات التي ينبغي تفسيرها بظاهرات أخرى. وما الأفكار إلا اسماء." [١٨] وسار باركلي على نهج لوك في رد المعرفة الى مجموعة من الاحساسات ،لكنه رفض التمييز بين الموضوعات والأفكار، كما رفض نظريته التمثيلية Representative في المعرفة .وفسر الإدراك الحسي على نحو مختلف؛ رفض فيه وجود الأشياء الخارجية ،ورأى أن مصدر الاحساسات ليس الموضوعات المادية، لأن المادة ليست سوى حاملاً ميتافيزيقياً لصفات

---

[١٣] جون دن، لوك "مقدمة قصيرة جدا"، ت:فايقة جرجس حنا، مراجعة: هبة عبد المولى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة-القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠١٦م ،ص:٨٩.

[١٤] د. محمد فتحي الشنيطي، جون لوك "دراسة نقدية لفلسفته التجريبية"، دار الطلبة العرب للطباعة والنشر-بيروت، الطبعة الأولى،١٩٦٩م،ص:٥٧

[١٥] ديوي، أنواع من التفكير، ،ص:١٤٤ .

[١٦] د. انصاف حمد، المعرفة والتجربة "دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم"،ص:١٢٧.

[١٧] ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ت: د. موسى وهبة، دار الفارابي-بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٨م،ص:٤٠ .

[١٨] جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر-بيروت، الطبعة الثالثة،٢٠٠٦م، ص:٥٤٨-٥٤٩.

هي وحدها التي تؤدي الى تجارب تشكل مضامين ذهنية .والإدراكات الحسية تزودنا بأفكار عن الحس ولا تأتي عن الأشياء الخارجية، وهي أفكار في الذهن فقط .وعرف باركلي الأشياء المحسوسة بأنها:" الأشياء التي تدرك إدراكا مباشرا عن طريق الحس...وإذا جردنا الأشياء من جميع صفاتها الحسية فلن يبقى فيها شيء محسوس "[١٩]. و يعنى بذلك أن الأشياء موجودة لأننا ندركها بالحس، وكل ما لدينا هو تجارب بإحساسات أو انعكاسات معينة تعرضها علينا تجارب بالفعل. أيضا لم يعط أي دور للعقل في معرفة العالم الخارجي، وحصر دوره في تأمل الذات أو معرفة النفس للنفس.

ولم يقتصر تأثير لوك على أتباع الفلسفة الحسية ،ولكنه امتد في فترة لاحقة ليمهد لظهور التجريبية الراديكالية في الفلسفة المعاصرة.

ثانيا: التجريبية الراديكالية عند وليم جيمس:

عارض جيمس الروح المذهبية التي تفسر العالم وشتى الموجودات بالرجوع الى مبادئ عقلية سابقة على كل تجربة، كما عارض المذاهب المغلقة التي رأت وجود "مطلق" بعيدا عن الواقع .واتفق مع لوك في أن الوجود الحقيقي هو وجود الجزئيات وأن الإحساس هو الحد الذي نستمد منه معارفنا، وبأن الكليات مجرد تجريدات ذهنية تلي الجزئيات في المرتبة. "أخذ جيمس عن لوك فكرة أصبحت مفتاح نظريته الأساسية في الصدق البراجماتي. لقد قال لوك: إن التجربة الجزئية إحساس جزئي في مكان معين وزمان محدد، وينبغي أن يكون الإحساس هو الحد الذي نقف عنده وننتهي إليه، أي أن التجربة الجزئية هي أصل المعرفة وبأن التصورات ثانوية."[٢٠] ولكنه اختلف معه في تصوره لطبيعة التجربة وصلتها بالعقل ودوره .وقد ساهم تعمق جيمس في دراسته لعلم النفس وتأثره بالبيولوجيا التطورية، في تقديمه لون جديد من التجربة ،عرف باسم "التجريبية الراديكالية" Radical Empiricism .

فكيف يتصور جيمس التجربة ؟

لا تتألف التجربة عند جيمس من احساسات منفصلة، أو انطباعات حسية ،ولا هي وقائع جزئية ننتقل فيها من الأجزاء الى الكليات ، ولا مجال فيها للقول بحقيقة نهائية. وإنما هي عبارة عن أجزاء من التجربة الانسانية-الوجدانية- التي نعانيها الآن في لحظتنا الحاضرة التي نحياها وتتغلغل في وعينا. وقصد بها العالم المشترك الذي نوجد فيه كأشياء ومفكرين معا ،وهي في نفس الوقت ليست تجربة أحد بالمرة وتشمل كل ما يمر به الانسان من خبرات ."يقول: "إن موضوعاتكم هي مرة بعد أخرى مثل موضوعاتي.. فأذهاننا تلتقي عمليا في عالم موضوعات تشترك كلها فيها."[٢١] وأن تجارب الموجودات البشرية تمهيدية أولية ولا يمكن ادراجها ضمن مصطلحات عامة مجردة. وتتسم التجربة عنده بالتنوع والتعدد Pluralism، لأن جميع الوقائع تحدث في التجربة .ويصفها بأنها عالم من الخبرة الخالصة المتغيرة باستمرار." النزعة التجريبية التي اتسمت بها هذه الفلسفة نزعة بيولوجية ،حتى "الخبرة" ذاتها جاءت متطورة على اعتبار

---

[١٩] باركلي ، المحاورات الثلاث بين هيلاس و فيلونوس، ترجمة وتقديم :د. يحي هويدي ،دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة، سلسلة النصوص الفلسفية(٧)،ص:٣٥ .

[٢٠] د. محمود فهمي زيدان ،وليم جيمس، دار الوفاء للطباعة والنشر- الاسكندرية ،الطبعة الأولى،٢٠٠٥م،ص:١٦.

[٢١] هربرت شنيدر، تاريخ الفلسفة الامريكية، ت:د.محمد فتحي الشنيطي ،مكتبة النهضة المصرية،١٩٦٤م،ص:٣٧٣

أنها متضمنة في عالم الكائن الحي."[٢٢] والخبرة البشرية في رأيه بعيدة عن أي مبادئ أزلية أو حتمية." إن فلسفتي هي ما أسميها بالتجريبية الراديكالية، التعددية، التقدمية، التي تمثل النظام على اعتبار كونه يكسب تدريجيا ودائما في صيرورته."[٢٣]

وتستند رؤية جيمس للتجربة، الى معنى سيكولوجي ،يتصورها كمعين لا ينضب من الإحساسات والمشاعر والخواطر والأحلام والآمال .يقول: "كلما كانت الأشياء أوثق صلة بحياتنا الانفعالية كانت أشد واقعية من غيرها."[٢٤] ويذهب الى أن الصورة البدائية والأساسية للتجربة حالة من الوعي Consciousness أو الشعور*،تسبق أي تمييز بين الذات والموضوع. " .. التجربة شيء فج خام ،وغير مؤكد، وهي شيء متحول. " [٢٥] وقد أشار جيمس في مقدمة كتابه "معنى الصدق" وفي كتابه "بعض مشكلات الفلسفة "،الى أنه اهتم بمذهب فلسفي يتألف من ثلاث مسائل رئيسية "إن التجريبية الراديكالية تتألف أولا من قضية مسلمة postulate ثم ثانيا تقرير حقيقة أو واقع statement of fact، وأخيرا استنتاج conclusion معمم ."[٢٦] فما الذي قصده جيمس بذلك؟

-المسألة الأولى :المسلمة

يقيم جيمس فلسفته على مسلمة يؤكد فيها على أهمية التجربة –عالم الخبرة -في تشكيل الأفكار ويسقط من الاعتبار أي رؤية تقوم على الاستدلال أو الحدس أو الوحي ،أو أي عنصر لا يجرب تجربة مباشرة. ويذهب الى أن الموضوعات التي يجب أن يدور حولها نقاش وجدال بين الفلاسفة هي تلك التي يمكن تعريفها، أو التعبير عنها ، ووصفها بألفاظ وحدود وشروط مشتقة من الخبرة، أما الموضوعات البعيدة عن عالم الخبرة و ليست ذات طبيعة تجريبية فهي موجودة ولكنها لا تشكل جزءا من مادة الجدل الفلسفي. "التجريبية الراديكالية تذهب الى أن كل مناقشة فلسفية يجب أن تنحصر في موضوعات مما يقع في الخبرة البشرية "[٢٧] أي أنها لا تعترف في تركيبها بأي عنصر إلا إذا أخضع للتجربة. "..يجب أن يكون كل شيء واقعي قابلا للتجريب كي يكون واقعيا، كما يجب أن يكون كل شيء خضع للتجربة واقعيا." [٢٨] فكيف يتصور الواقع؟

-المسألة الثانية: رؤية للواقع

---

[٢٢] تشارلز موريس، رواد الفلسفة الامريكية ، ت:د.ابراهيم مصطفى ابراهيم ،مؤسسة شباب الجامعة- الاسكندرية-عام ١٩٩٦م،ص:٢٧

[٢٣] جيمس ،عالم متعدد، ت: احمد الأنصاري، مراجعة: د. حسن حنفي، المركز القومي للترجمة-القاهرة، الطبعة الأولى ،٢٠٠٩م، ص:٤٦٣

[٢٤] د. دعاء عبد النضير، الأسس اللاعقلانية في الفكر الفلسفي المعاصر، كلمة للنشر والتوزيع،الاسكندرية-مصر،٢٠١٠م ،ص:٤٥٠

* استخدم جيمس كلمات مرادفة للدلالة على المصطلح Consciousness،يقول: "في وسع القارئ أن يستبدل الكلمة بلفظ "فكرة" بمفهوم لوك، أو في وسعه إذا شاء أن يستعمل العبارة الثقيلة الظل "حالة الوعي" أو أخيرا في وسعه أن يقول بدلا منها "التصور"."(انظر جيمس، البراجماتية ،ص:٣٧٠ "بتصرف").واستخدم مصطلح feeling بمعنى شعور أو مدرك حسي، أو تجربة حسية. (انظر جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة ،ت: د. محمد فتحي الشنيطي، مراجعة د. زكي نجيب محمود، ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر،١٩٦٣م. ص:٥٠).

[٢٥] جون ديوى، ، أنواع من التفكير،ص:٢١٤.

[26] William James ,The Meaning of Truth,(www. Gutenberg.org> eBooks) ,p: 5 . and Assay in Radical Empiricism,(www. Gutenberg.org) ,preface, p:ix

[٢٧] د. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق -القاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٨٧م ،ص:١٨٤.(بتصرف)

[٢٨] ا. د. عبد الأمير الشمري، دراسات مختارة في الفلسفة الغربية المعاصرة، مكتبة مدبولي-القاهرة،١٩١٢م ،ص:٢٨.

ذهب جيمس الى أن الواقع قد تشكل على نحو ما، وهو قائم بذاته منذ الأزل يؤثر فينا ونتأثر به، ولم يناقش حقيقة وجوده أو كيف وجد. "يأخذ جيمس الوجود كأمر مسلم به، أو أنه واقعي واقعية السذاجة والحس المشترك، أو أنه لا يثير "المسألة المثالية" بالمرة."[٢٩] ولم يقصد به ما ذهب إليه ارسطو وبعض من جاء بعده من الفلاسفة- عبارة عن جزئيات ترتبط بالضرورات العملية وتتنوع بتنوع ادراكاتنا الحسية-ولكنه بحث في ماهيته وعلاقاته بناء على رؤيته للتجربة ،التي تنظر للواقع في تنوعه وتعدده . فما هي رؤيته للواقع ؟

قصد جيمس بالواقع ثلاثة عناصر متنوعة هي:

١- الأشياء والحوادث والوقائع: وهي الأشياء الواقعية المستقلة عن الذهن ،التي ندركها بحواسنا المختلفة ." الاعتقاد بأن هناك أشياء واقعية مستقلة عن الفكر اعتقاد راسخ متين لا غنى لنا عنه."[٣٠] أي أن وجود شيء مادي كوجود المكتب مثلا هو تصور موضوعي مستقل عن الذات ولابد من التسليم به. ويذهب جيمس الى أن معرفة هذه الأشياء الواقعية المحسوسة تأتي الى الحياة في لحمة التجربة الانسانية. "تعتقد البراجماتية أن أشياء عالم حسنا اليومي وكائناته، إنما هي جوانب من خليط الواقع ينتقيها العقل حسب قانون المنفعة ويحيلها موجودات وأشياء."[٣١] وادراكنا لهذه الموجودات يتم بشكل مباشر "نحن ندرك الواقع كحقيقة خارجية حاضرة مباشرة، في حين أن أشياء "الفكر" وادراك المعاني المجردة لا تظهر حاضرة بهذه الطريقة الفيزيائية المباشرة ."[٣٢] ولا تتصف الوقائع المادية بالصدق أو الكذب –لأنها أشياء موجودة فحسب- و نحن من نحكم عليها بذلك، لأن الصدق كما يتصوره جيمس خاصية لاعتقاداتنا وليست للأشياء .

٢- العلاقات الكائنة بين الأشياء والوقائع التجريبية: كالتواريخ والعلاقات المكانية والزمانية والأنواع ومبادئ المنطق والرياضيات وعلاقات الكم والكيف والعلية والاضافة...الخ. هذه العلاقات تدرك بالحواس أو تفقه بالعقل أو الحدس. ويذهب جيمس الى أنها لا يمكن أن تكون شيء خارج عن طبيعة الموقف أو أتت من مصدر خارجي، لأن العقل الانساني لا يضيفها على المدركات الحسية لتربط بينها وتؤلف الأفكار، كما ذهب التجريبيون ،ولا وجود لمقولات في الذهن تربط بين الموضوعات الخارجية في وحدة تامة كما رأى العقليون. وليس هناك مطلق يربط بين الاحساسات - مثل برادلي وآخرون- وتميزت فلسفة جيمس برؤية جديدة للعلاقات ،ترى بأنها جزء لا يتجزأ من الواقع ،وبواسطتها ننتقل من جزء الى آخر من أجزاء التجربة. " إن الحقائق الواقعية التي توجد أمامنا في تجربة مباشرة، هي كل الحقائق الموجودة، وهي أشياء مترابطة وعلاقاتها."[٣٣]

وتشكل العلاقات جزءا من التجربة؛ لأن الوعي عبارة عن ديمومة تحتوي الموضوع بكليته في احساساته كما في علاقاته سواء بسواء. "..يجب أن تكون العلاقات التي تربط بين التجارب هي نفسها علاقات مجربة experienced relations ،وأي نوع من هذه العلاقات المجربة، يجب

---

[٢٩] هربرت شنيدر ،الفلسفة الامريكية،ص:٤١٤

[٣٠] د. محمد فتحي الشنيطي، المعرفة، مكتبة القاهرة الحديثة للطباعة والنشر ،الطبعة الثالثة،١٩٦٢م،ص:٢١١.

[٣١] س. ي. جود، مدخل الى الفلسفة المعاصرة ت: محمد شفيق شيا، مؤسسة نوفل- بيرو ت، الطبعة الأولى،١٩٨١م،ص:٩٩

[٣٢] جيرار ديلودال ، الفلسفة الامريكية، ت:د.جورج كتورة، د. الهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، الطبعة الأولى،٢٠٠٩م،ص:٢٤٥.

[٣٣] وليم كيلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ت:محمود سيد احمد، تقديم و مراجعة د. إمام عبد افتاح امام، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة،٢٠٠١م،ص :٤٨٥

أن تصنف أو تعتبر كأنها "حقيقية" كأي شيء آخر في النسق أو النظام system."[٣٤] ومن ثم فإن العالم كما يتصوره جيمس؛ هو ما يأتي في الخبرة بعنصريه؛ الأشياء والعلاقات التي تربطها، لأن العلاقات متضمنة في التجربة وحقيقية مثلها مثل الأشياء. ونحن حينما ندرك الأشياء الموجودة في عالم الخبرة، فإننا ندركها مع العلاقات التي تربطها ." لا يحتاج الكون المدرك إدراكا مباشرا لأي شيء خارج عن التجربة ليربط بين أجزائها ."[٣٥].ونشير هنا الى أن جيمس اهتم بالعلاقات الكائنة بين الظواهر الحسية والوقائع التجريبية وليس بالعلاقات القائمة بين الأفكار كما سبق وذهب لوك. "يجب أن يدرك كل من يفحص الحياة الحسية في الواقع أن العلاقات بجميع أنواعها، عن الزمان والمكان والاختلاف والتشابه، والتغير والنسبة والسبب، ليست إلا أعضاءً وعناصراً مكملة لمادة الواقع مثل علاقات الانفصال."[٣٦] كذلك اختلف جيمس عن لوك في رؤيته للإحساسات على أنها منفصلة ومستقلة والعقل هو من يربط بينها . فنحن حينما ننظر الى ادراكنا لمعطى ما كالقول: "إن الكتاب على الطاولة" فإن ادراكنا الحسي يتألف من احساس بالكتاب واحساس بالطاولة وعلاقة عقلية تربط بين الكتاب والطاولة. في حين يذهب جيمس الى أننا ندرك المعطى في المثال السابق ككل واحد متصل في الخبرة وليس كأجزاء . يقول: "لقد أطلقت على وجود علاقات الاتصال والانفصال في الخبرة الحسية الواقعية في كتاباتي الحالية اسم "المذهب التجريبي الراديكالي، تمييزا له من اسم مذهب الذرات الذي يقترحه المذهب التجريبي"[٣٧]

٣-المعارف السابقة والتجارب الماضية التي اكتسبناها: مثل المعتقدات والآراء التي توجد بحوزتنا –في وعينا- ونتقيد بها عندما نصدر أحكامنا بالصدق أو الكذب تجاه أي موقف يمر بنا."...إن التجارب الماضية جزء أساسي وعنصر هام في الواقع .. المعرفة الحقيقية هي توفيق بين العقائد القديمة والعقائد الجديدة، وإن التجارب الماضية التي مر بها الانسان يمكن أن تفسر على ضوئها أفكاره الجديدة"[٣٨].

هذه العناصر المتنوعة –التي سبق ذكرها – هي ما قصده جيمس بالواقع ويعني به التجربة أو الخبرة الخالصة؛ Pure Experience ،التي تشمل جميع الخبرات البشرية. يقول: "تعتبر التعددية الواقع هو ما نحققه تجريبيا في كل لحظة من لحظات حياتنا ،فليس الواقع إلا خبراتنا ولا ينفصل عنها..."[٣٩] ويشير ذلك الى أن تصور جيمس للواقع ليس عقلانيا من حيث التكوين يقول." أقصد بالواقع هنا الواقع الذي تحدث فيه الأشياء، وكل الوجود الزمني دون استثناء، بل لا أضمن اطلاقا عدم الشك في امكانية وجود أي واقع أعلى من الواقع الذي نحيا فيه ونسبح في تيار حوادثه.."[٤٠]

-المسألة الثالثة: النتيجة

---

[34] William James ,Radical Empiricism, p:42

[٣٥] د. زيدان ،جيمس،ص:٨٤

[٣٦] جيمس، عالم متعدد ،ص:١٤٦

[٣٧] جيمس ،المرجع السابق ،ص:١٤٦(بتصرف).

[٣٨] د.زيدان، مرجع سابق،ص:٥٨

[٣٩] جيمس ،عالم متعدد ،ص:١٦٥

[٤٠] المرجع السابق ،ص:١١٤

أثرى جيمس تجريبيته برؤية تعددية للعالم، تعارض القول بمبدأ عقلي واحد أو مطلق نفسر به العالم وشتى الموجودات، وترى أن العالم قوامه كائنات كثيرة وليس كائن واحد "..حين تطرد التعددية المطلق من حياتنا فإنها تخلص الواقع من غربة حقيقية، ويصبح كل هدف أو سبب أو دافع أو موضوع للرغبة أو مصدر للحزن أو المتعة موجودا في هذا العالم، فلا يحدث شيء إلا في هذا العالم الذي تقع فيه الحوادث وتمضي. "[٤١] فالعالم كما يراه جيمس عبارة عن أجزاء مستقلة وحوادث منفصلة، لكنها في الوقت نفسه ترتبط في وحدة –بشكل غير مباشر- ويشبهها بالحبل ،كل خيط فيه يحكي قصة منفصلة ،ولكن ليس على نحو مطلق .بمعنى أن هناك وحدة تحوي التعدد الذي في الكون. " إن العالم واحد بقدر ما تتماسك أجزاؤه. إنه متعدد بقدر ما يفشل أي ارتباط محدد في أن يدرك. وأخيرا فهو يزداد اتحادا أكثر وأكثر بالصلة والارتباط التي تواصل الطاقة البشرية في تركيبها وإنشاءها بمرور الزمن. "[٤٢] وتمثل الأجزاء المتعددة في العالم خبرتنا التي نعيشها ،تؤثر أحواله وحوادثه فينا، وتثير تقلباته اهتماماتنا، ونرتبط فيه بالشخصيات المتعددة التي يضمها .وترتبط أجزاء الخبرة ببعضها من الأقرب الى الأقرب، ومن التالي الى اللاحق – مما يشكل وحدة - بعلاقات وارتباطات هي نفسها أجزاء من الخبرة "..إن الكون الذي يدرك مباشرة لا يحتاج الى أي سند خارجي فوق تجريبي ليقوم بدور الرابط connective،وإنما يملك في حد ذاته تركيبا متسلسل الارتباط أو متصل. "[٤٣] فالعالم عبارة عن أجزاء عدة ولا يمكننا تكوين فكرة كاملة ومعقولة عنه إلا إذا فكرنا فيه بوصفه حاويا لأجزائه . يقول: "تنتقل التجريبية من الأجزاء، وتعامل الأجزاء على أنها أساسيه في نظام الوجود وفي نظام المعرفة معاً."[٤٤].

ويعتقد جيمس بأن العالم ليس بناء مكتملا أو نهائيا ،ولا يخضع لأية حتمية علمية -مثل واحدية سبنسر-يقول :"...الواقع ناقص وغير مكتمل، والصورة المتحققة منه صورة موزعة ومنتشرة وناقصة، فصورة الواقع ككل غير كاملة."[٤٥] ويسعى الانسان بمجهوده الى التغلب على ما يوجد في العالم من نقص وانفصال ،والاتجاه به قدر الإمكان الى الاتحاد.. أيضا يتصف العالم- حسب جيمس- بالمرونة، بحيث يمكن تشكيله والتأثير فيه على نحو يحقق لنا المنفعة في حياتنا .

ومما سبق نتبين السبب في تنوع التعريفات* ،التي عبرت عن موقف جيمس من التجربة. ومن ثم نجد تجريبية بلون جديد ، انفصلت انفصالا جذريا عن تجريبية "لوك".

---

[٤١] المرجع السابق ،ص:٣٦

[٤٢] د. محمد عبد الحفيظ، الفلسفة والاعتقاد الديني "وليم جيمس نموذجا"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الاسكندرية، طبعة ٢٠١٧م،ص:١٠٥ .

[43] William James ,The meaning of Truth ,p:5

[٤٤] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة ،ص:٨٩

[٤٥] جيمس ، عالم متعدد ،ص:٣٣

* من هذه التعريفات :١- "التجربة الخالصة هي اسم ..للتدفق المباشر للحياة الذي يوفر furnishes المادة لتأملنا المتأخر مع فئاته التصورية."(Ruth Anna ,The Cambridge Companion to William James,p:43).٢- التجربة هي "..إنكار تجاوز الخبرة المحسوسة الملموسة "،و"الإصرار على أن العلاقات الواصلة والفاصلة ،هي علاقات حقيقية سواء بسواء، عندما تمارس."(رالف بارتون بيري، ت:د. محمد علي العريان، تقديم: رمضان بسطاويسي، ،أفكار وشخصية وليم جيمس ،المركز القومي للترجمة-القاهرة ،سلسلة ميراث للترجمة-العدد(٢١٣٠)،٢٠١٣م،ص:٣٨٢). ٣-" إنها الامتلاء العيني للحياة في مقابل التفكير التجريدي اللاحق فيها"(راسل، حكمة الغرب،ص:٢٠٨) ٤- ".. يعني بالتجريبية موقفا يقنع بالنظر الى نتائجه الأكثر يقينا التي تخص أمور الواقع بأنها فروض تقبل التعديل في مجرى التجربة المستقبلية." (انظر فريدريك كوبلستون ،تاريخ الفلسفة ،ت: محمود سيد احمد، مراجعة وتقديم: امام عبد الفتاح امام، المجلد الثامن" من بنتام الى رسل"، المشروع القومي للترجمة، القاهرة،العدد

المبحث الثاني : المدركات الحسية**

ذهب جيمس الى أن تيار الحياة الذي يمثل صميم تجربتنا، عبارة عن حشد من المدركات الحسية التي تعبر عن خبرتنا الخالصة؛ "هي اسم آخر للشعورFeeling أو الاحساس Sensation"[٤٦] .وتمثل هذه المدركات المادة الخام الأولية الحسية للمظهر الحقيقي للواقع ،أو أنها القوام الأول الذي منه يتكون كل شيء. " لا يوجد إلا مادة واحدة stuff or material ، في العالم ، حيث كل شيء مركب " التجربة الخالصة "[٤٧] .

خصائص المدركات الحسية:

يعرض جيمس لعدد من السمات التي توضح طبيعة المدركات الحسية :فهي عبارة عن كثرة متنوعة، غير محددة بسياج تصوري، و تتسم بالتغير المستمر، ولا تعود الى الخلف، أوالى ما كانت عليه من قبل ."..ليس هناك "وحدة" أو "كل" إلا إذا كانت "التصورات" أداتنا في التفكير، وأما حيث تكون أداتنا هي "المدركات" فلن يكون ثمة غير جزئيات متعددة، ووقائع متكثرة، وروابط متباينة، وواقع خصب متغير متجدد." [٤٨] ويرى بأنها مختلفة دائما عن بعضها البعض، واذا أردنا معرفتها علينا أن نركز على المميزات الفردية الجزئية المتغيرة، من خلال النفاذ الى صميم مجرى الحياة نفسها . ويرى جيمس أن الحياة بهذا المعنى عبارة عن تكذيب مستمر لمبادئنا وقواعدنا المنطقية ؛لعدم وجود تماثل أو تكرار بين الظواهر ،وإنما تيار متدفق من الإحساسات يسهم في إثراء تجاربنا ويضيف الى خبرتنا نوعا من الجدة والابتكار الملموس .يقول: "إن خصوصية كل دقيقة وفرديتها تجعلها جديدة"[٤٩]

وتأتي أجزاء الخبرة الحسية المتغيرة متداخلة مع بعضها-زمانا ومكانا- في وحدة لا انفصام فيها، على نحو يصعب الفصل فيها بين الماضي والمستقبل والحاضر. فنحن نشعر باستمرار بتعاقب الأجزاء الثلاثة للزمن، فالماضي والمستقبل ليسا نقيضين لهذا الحاضر وإنما كليهما موجود في نفس الوقت أثناء الخبرة. يقول جيمس:".. ما يسمى باللحظة الحاضرة مجرد افتراض لفظي خالص وليس وضعا واقعيا محددا، وتتحقق اللحظة الحاضرة الوحيدة بشكل واقعي حسي في اللحظة الماضية التي تختلط فيها اللحظة الراحلة من الزمن مع اللحظة القادمة. فإذا قلت كلمة "الآن" فإنها تتحول الى كلمة "كان" أثناء النطق بها "[٥٠] وتشكل كل لحظة من لحظات الحس لحظة عابرة فيها نشعر بكل من الماضي والحاضر معا في ميدان واحد للوعي، لا تنفصل فيها الحوادث الماضية التي حدثت في حياة أي انسان عن بعضها البعض. قد تجزؤها الأسماء التي

١٣٣٠، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م،ص:٤٦٧-٤٧٧) ٥- "هي في الحقيقة رد ذاتي للواقع، الى "خبرة خالصة"، الى وعي.." (انظر: روزنتال، الموسوعة الفلسفية، ص:١٧٣).

** استخدم جيمس كلمات مرادفة للمدرك الحسي Sensible Perception مثل :كلمة شعور، التجربة الحسية، أو التدفق المباشر للحياة الواعية، أو الواقع أو الخبرة .(انظر: جيمس ، بعض مشكلات الفلسفة ، هامش ص:٥٠)

[46]William James, Essay in Radical Empiricism ,p:94

[٤٧] جيرار ديلودال، الفلسفة الامريكية ،ص:٢٤٠.

[٤٨] د. زكريا إبراهيم – دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول-مكتبة مصر للطباعة،ص:٢٩-٣٠

[٤٩] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة،ص:٨٩

[٥٠] جيمس ،عالم متعدد ،ص:١٣٥

نطلقها عليها أو تحولها الى كيانات صورية منفصلة إلا أن هذه التجزئة لا تكون قائمة أصلا في حياتنا المتواصلة في عالم الخبرة. هناك إذن نوع من الترابط الباطني بين لحظات الخبرة ،وكل شيء يرتبط بشيء آخر دون أن يقبل التحلل أو الذوبان فيه، وما نلاحظه من تجزئة يأتي بفعل التصورات في حالة تركيزنا على نقطة بعينها . "لا تستطيع أن تفصل الشيء عن الآخر الخاص به إلا باستبعاد الواقع كله والنظام الواقعي ككل، والاتجاه الى النسق التصوري."[٥١] ذلك لأن وحدات حياتنا الشعورية لاتشبه الوحدات المنفصلة التي يتعامل معها المنطق العقلي. ويتفق ذلك مع رؤية " برجسون"* للعقل.

كما تتسم المدركات الحسية بالنشاط والمغامرة والحركة المستمرة ؛ لأن كل معطى مباشر للخبرة الحسية يكون دائما شيئا جزئيا ومنفردا ،لكنه يقبل عملية التبادل والإسهام مع غيره من المعطيات. لذلك فإن الخبرات الحسية تكون داخليا ملتحمة ومتداخلة مع باقي أجزائها، وتوجد خارجيا متنقلة على نحو مستمر وفي حالة تفتح مع غيرها من الخبرات الحية الواسعة. يقول جيمس:"...حيث يلتحم كل جزء محسوس بالأجزاء الأخرى المجاورة له ،هذا ما أعنيه باستمرار التيار الحسي .حيث لا ينفصل أي عنصر في هذا التيار عن العناصر الأخرى، كما تنفصل التصورات عن بعضها بعضا.. فيكون كل ما هو واقعي متداخلا مع الوقائع الأخرى ومنتشرا فيها."[٥٢] ويشبه جيمس تواصل الخبرة واستمراريتها بالنهر الجاري المتصل ".. هي تيار من الشعور، سيال متصل لا فواصل فيه ولا روابط، تماما مثل تيار النهر الجاري. والأشياء تتداخل بعضها في بعض زمانا ومكانا، وكل شيء يسيل ويتدفق."[٥٣] ويمكن لهذا التيار أن يتجزأ- في مرحلة تالية- بفعل تدخل "الوعي" الذي يفصل الاحساسات عن بعضها البعض .

ويؤكد جيمس على أن المدركات الحسية عبارة عن تجربة انسانية مشتركة متصلة ومتغيرة، وتخضع للتطور العلمي والنقد الفكري ،وتمثل المصدر الذي نستقي منه معارفنا .يقول: "نظريتي هي أن طرقنا الأساسية للتفكير في الأشياء-نتيجة لما اكتشفه أسلافنا القدماء-تكون مرحلة عظمى من مراحل التوازن في التطور العقلي الإنساني ،وهي مرحلة الفهم المشترك. وهي لاتزال حية باقية في تجارب الناس. "[٥٤] ويرى بأننا نخضع لهذه المدركات ،لكنها في نفس الوقت خاضعة لنا ،فنحن من يشكلها بالصورة التي تلائم أهدافنا المختلفة والمتنوعة ."..حقا نحن نخضع للواقع لأنه المصدر الوحيد للمعرفة لكن هذا الواقع خاضع لنا بمعنى ما، أي أنه لين مرن قابل للتشكل والتعديل بحيث يوضع على الصورة التي تلائم أغراضنا في الحياة."[٥٥]

المبحث الثالث : التصورات العقلية

١ـسوء استعمال التصورات:

---

[٥١] المرجع السابق ،ص:١٤٨

* Bergson Henri(١٨٥٩- ١٩٤١م) فيلسوف فرنسي معاصر، تأثر به جيمس وبطريقته الفريدة في النظر الى الأشياء والتعبير عنها. من مؤلفاته: في معطيات الوجدان المباشرة١٨٨٩م،المادة والذاكرة،الضحك١٩٠٠م،التطور الخالق١٩٠٧م،الطاقة الروحية١٩١٩م، الديمومة والتزامن ١٩٢٢م،منبعا الأخلاق والدين ١٩٣٢م.

[٥٢] جيمس ،المرجع السابق ، ص:١٤٣

[٥٣] د. عبدالرحمن بدوي ،الموسوعة الفلسفية، الجزء الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م ،ص:٤٤٨.

[٥٤] د. محمود زيدان، وليم جيمس،ص:٥٤

[٥٥] جيمس ،مرجع سابق ،ص:٥٩

انتقد جيمس المذهب العقلي في رؤيته للمنطق باعتباره مقياسا كافيا لما هو ممكن الوجود، وما هو مستحيل الوجود في عالم الواقع ،متأثرا في ذلك بموقف "برجسون" الذي حدد دور التصورات ومجال نفوذها* .يقول:" لم استطع استبعاد المنطق من أقسام الفلسفة ونقله الى عالم الممارسة الإنسانية أو التقليل من قيمته في الحياة النظرية إلا بعد قراءتي لأعمال الاستاذ هنري برجسون، وتأثري بآرائه، واكتسابي الجرأة منها."[٥٦] لأنه وجد أن حياتنا والواقع والخبرة والمحسوس المباشر تتجاوز المنطق.

ذهب جيمس الى أن فساد معنى العقلانية بدأ منذ قال سقراط وافلاطون أننا نعرف حقيقة الشيء من تعريفه، وبأن الوجود من الماهيات وليس من المظاهر. وبأننا نستطيع من خلال التعريفات معرفة ماهيات الأشياء. "نحدد الشيء بمفهوم معين ثم نحدد المفهوم بالتعريف وبالتالي يرتبط وجود الشيء بتعريفه، وندرك حقيقته وماهيته الحقيقية من تعريفه."[٥٧] ويتم النظر الى هذه التعريفات على أنها ثابتة لا تتغير، ولا يمكن لأحدهما أن يتحول الى الآخر. ولا يقتصر دور المفاهيم عند العقليين على تحديد صفات الأشياء أو نسبة بعض هذه الصفات لها، ولكنهم سعوا الى توظيفها في حذف الصفات الحسية التي تظهر فيها واستبعادها. يقول جيمس:".. لا عجب أن المفكرين الأوائل قد نسوا أن المفاهيم صناعة بشرية، وتم تجريدها من المادة الزمنية الخام، وانتهوا الى معاملة هذه المفاهيم والتصورات باعتبارها نمطا أرقى من الوجود، ومنزلة أرفع وأنقى، وأصدق . وبالتالي يعارض من حيث الطبيعة العالم السفلي المتغير المضطرب. فيظهر هذا العالم الأخير فاسدا وصورة زائفة لهذه المفاهيم وتلك التصورات."[٥٨] وأصبح هذا النمط من التفكير-مع مرور الزمن- عبارة عن منهج اعتاد المفكرون* على إتباعه بصورة دائمة.

أشار جيمس الى أن التصورات استخدمت في البداية لفهم الأشياء، وانتهى الأمر الى أن أصبحت عقبة أمام فهم هذه الأشياء نفسها ؛لأنه تم استبدال معطيات الحس بنظام عقلي، يفترض أن العالم واحد وليس متعدداً، ثابتاً وليس متحركاً، تتفق فيه الطبيعة الثابتة للحقيقة مع ثبات المفاهيم والتصورات. بالإضافة الى أن المعرفة التصورية كشفية مكتفية بذاتها. "لقد تناولها الكتاب العقليون دائما على أساس اقرارهم بعالم الهي، هو عالم الكليات أكثر منه عالما للحقائق الزائلة، وهو كذلك عالم الصفات الضرورية والعلاقات الثابتة والمبادئ الخالدة للحق والخير .."[٥٩] وأخيرا رأى جيمس أنه على الرغم من أخطاء العقليين التي أصابت عالمنا بالغموض وعدم الفهم - لاستخدامهم المنطق في الجوانب النظرية- إلا أن ذلك لا يقلل من أهمية المنطق وقيمته الكبيرة التي يحظى بها في حياتنا .

٢-طبيعة الوعي:

بدأ جيمس كتابه " التجريبية الجذرية" بمقال له بعنوان :"Does Consciousness Exist?هل للوعي وجود؟"، وقصد به العمليات العقلية التي تشترك في ادراك الانسان لنفسه وللعالم .وعرفه

---

* خصص جيمس إحدى محاضراته في عرض الملامح الرئيسية والضرورية لفلسفة برجسون ،وموقفها من المذهب العقلي (انظر: عالم متعدد ،المحاضرة السادسة،ص:١١٩).

[٥٦] جيمس ، عالم متعدد ،ص:١١٥

[٥٧] المرجع السابق ،ص:١١٦

[٥٨] المرجع السابق ،ص:١١٦

* ناقش جيمس هذا النوع من التفكير عند كل من :برادلي وهيجل في كتابه عالم متعدد(انظر المحاضرة الثانية والثالثة).

[٥٩] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة ،ص:٥٦ .

" بأنه علاقة بين الذات والعالم"[٦٠]. وقد تضمنت المقالة موقفه الرافض لتصور الاتجاه العقلي - لطبيعة الوعي وفكرة الثنائية- أشار فيها الى أنه ظل لفترة طويلة يعتقد بصحة ما ذهب اليه العقليون؛ بأن للوعي سياقا من الوجود المتميز، لكنه انتهى الى إنكار أن يكون للوعي كيان قائم بذاته ومستقل عن البدن، وعنه تصدر أفكارنا .يقول: "منذ عشرين سنة خلت فقدت ثقتي في "الشعور "ككيان قائم بذاته، ومنذ سبع أو ثمان سنوات مضت أوحيت لتلاميذي بأنه غير موجود، وحاولت أن أزودهم بمعادلة البراجماتي في حقائق التجربة. ويبدو لي أنه قد آن الأوان لنبذه نبذا صريحا كليا."[٦١] وبذلك رفض جيمس التسليم بوجود الوعي باسم التأمل والتجريد، أو أن ينسب له مبادئ فطرية أو صور أولية تمكنه من ادراك الواقع الخارجي و معرفته." الوعي هو اسم للاكيان، وليس له مكان حقيقي بين المبادئ الأولى "[٦٢] . ومع ذلك وجد جيمس أن إنكار وجود الوعي دفعة واحدة سوف يحوي نوعا من التناقض ،لأننا لا نستطيع أن ننكر قيمة الأفكار والتصورات الكلية – متأثرا في ذلك ببيرس – لمالها من أهمية في مجال العلوم، كما أنها تزيد من معارفنا بالأشياء وهذا بحد ذاته يعد انجازا نظريا. وبذلك يختلف مع برجسون ،الذي رأى للعقل فائدة عملية فقط، وأن دوره يقتصر على تصوير العالم الخارجي. "أود الاختلاف مع الاستاذ برجسون وأنسب لعقلنا وظيفة نظرية"[٦٣]

وذهب جيمس الى أن الادراك* هو وظيفة الوعي، التي تعبر عن دور الأفكار في التجربة ،وفيها يهتم الذهن بما يحدث حوله وبكيفية التفكير وليس بما ينبغي أن نفكر فيه ،كما يهتم بالسبب الذي يجعلنا نعتقد فيما نفعله وإذا ما كانت معتقداتنا معقولةً و صحيحةً أم باطلة. "..إنني أنكر أن كلمة الوعي تدل على كيان، ولكنني أصر بشكل قاطع على أنها تقف standعلى وظيفة function ."[٦٤]وفيها يربط جيمس الوعي بالواقع ،لتصبح الأفكار جزءا من التجربة الحسية. ويرى بأنه "ذلك التيار الذي يتضمن الفكر والاحساس والإدراك"[٦٥].ويتصف بالاستمرارية والاتصال، ويمثل كلا واحدا. ولا يمكن عزل أجزاء هذا التيار إلا إذا سلطنا عليها أضواء البحث وركزنا انتباهنا على نقطة بعينها ونظرنا اليها نظرة مجردة. "فالوعي واحد ومتعدد معا تبعا لاختلاف النظر اليه"[٦٦]. ويمارس نشاطه مع معطيات الخبرة، بفاعلية وتلقائية ونشاط ذاتي.

ويهدف الوعي الى فهم التجربة وخلق الأفكار واقتراحها بدافع من الإرادة ،للتكيف مع البيئة الخارجية .لأننا حينما نكون الأفكار العامة ونضعها موضع العمل نخرج بنتائج تسهم في تغيير حياتنا عموما. "وهذا يؤيد أهمية التفكير وعمله النظري في الخبرة، ولذلك ليس من الصحيح القول بأن جيمس نظر الى العقل والفكر والمعرفة بازدراء، أو أنه عدها مجرد وسائل للكسب الشخصي أو النفع الاجتماعي، بل للعقل عنده وظيفة مبدعة تشكل العالم وتجعله معقولا، وتهبه

---

[٦٠] د. عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية للطباعة والنشر-القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٠م،ص:٣٨٣ .

[61] William James ,Essay in Radical Empiricism,p:2

[62] Ruth Anna Putnam ,The Cambridge Companion to William James ,Cambridge University Press,1997,p:28

[٦٣] جيمس ،عالم متعدد ،ص:١٣٠

* أحد المباحث الرئيسية التي عرضها جيمس في كتابه البراجماتية ،انظرص:٣٦٩.

[64] William James, Essay in Radical Empiricism ,p:3

[٦٥] د. عادل عوض، حقيقة الوعي الانساني "بين الوحدة والتعدد أو الاتصال والانفصال"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الاسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م،ص:٢٥ .

[٦٦] المرجع السابق،ص:٢٥

قيمة ملازمة له."[٦٧] والتجربة هي المعيار الذي يؤيد الأفكار أو ينكرها. يقول: "إن في الانسان ميولا وحاجات ،وإن العقل وسيلة تحقيقها في عالم التجربة، بما يقدم من مقترحات تستلزم التحقيق."[٦٨] ومن ثم لا يختلف العقل في نظر "جيمس" عن باقي أعضاء الانسان، لأنه يقوم بدور فاعل في حياته . ".. هو عنده أداة فعالة نشيطة، مهمته أن يوائم بين الكائن وبيئته مواءمة تعين صاحبه على البقاء.."[٦٩]. ونلاحظ هنا تأثر "جيمس" بنظرية التطور عند "دارون"* التي رأت في الذهن أداة متطورة تمكن الجسم البشري من مواجهة الوسط المحيط به.

(سيأتي لاحقا الحديث عن دور الأفكار في التجربة).

٣-أصل التصورات(النظام التصوري):

ذهب جيمس الى أن التفكير في مراحله الأولى- للذكاء الانساني- كان قاصرا على الناحية العملية، ثم أخذ الانتباه يقتطع موضوعاته من التجربة الحسية المباشرة، وأطلق على هذه الموضوعات مسميات محددة تدل على هويتها -تظل الى الأبد –مثل قولنا ؛أرض ،سماء ،شاطئ ،بحر، شجرة ،شلال، منزل...وهكذا. ومن الزمن يقتطع مسمى ؛الأيام ،الليالي ،الأسبوع، الأشهر، والصيف ،الشتاء...وهكذا،وكل ما يقتطع يصبح ذا طابع فكري خالص. يقول :"تسمى هذه الطبائع المستخلصة من إدراكنا لهذه الأجزاء بالتصورات."[٧٠] وكل تصور يعني تماما ما يعنيه بمفرده ولا شيء غير ذلك. ويذهب جيمس الى أن بعض أجزاء التجربة الحسية تكون أشد وأقوى وأكثر إثارة من الأجزاء الأخرى- سواء عند الانسان أو الحيوان-مع فارق أن استجابة الحيوانات الدنيا للإحساسات القوية تعبر عنها بحركات مناسبة، والحيوانات العليا تتذكر هذه الاحساسات بينما يستجيب الانسان لهذه الإحساسات استجابة عقلية ،ويستخدم الاسماء والصفات لتشير اليها، حتى يتحقق منها حيثما التقى بها. ولأن التجربة الحسية متنوعة و متغيرة باستمرار، ،فقد اتفق الناس على تصنيفها الى فئات، ثم استعاضوا عن المدركات الحسية بالتصورات ليستخدموها فيما صنفت له، وليستعدوا للمهام التي قد تواجههم في الحياة .ونتيجة لاستئثار بعض هذه الفئات بانتباهنا –استئثار أجزاء التدفق الحسي- تنشأ لدينا تصورات عالية التجريد،ومن استخداماتها النافعة في حياتنا نشأت عوالم مختلفة من التفكير؛ عالم الأشياء- الحس المشترك- وعالم المهام المادية التي يؤديها الناس، وعالم الرياضيات ،وعالم المنطق والفلسفة وعالم القضايا الأخلاقية والموسيقى ...الخ

وعندما تألفت لدينا أنظمة تصورية مختلفة، نشأ بينها ألوان من العلاقات. ونتيجة لملكتنا التي نقارن بها وللحاسة التي لدينا عن الاختلاف أو التفاوت تنشأ لدينا علاقات جديدة بين هذه العلاقات، لتربط بينها بوسائل عقلية وثيقة لا يطرأ عليها تغير. ومن هذه العلاقات تتشكل النظريات والقوانين في مختلف العلوم، التي يطلق عليها العلوم الأولية. يقول جيمس: "إن الطبيعة الثابتة للعلاقات في هذه العلوم هي التي تصبغ القضايا التي نعبر عنها بالطابع السرمدي. فنظرية

---

[٦٧] د احمد فؤاد الأهواني ،جون ديوي، سلسلة نوابغ الفكر الغربي(١١)،دار المعارف-مصر،ص:٩٠

[٦٨] د. زيدان ، مرجع سابق ،ص:٦١

[٦٩] د. زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، دار الشروق-القاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٨٢م،ص:٢١٢

* Charles Robert Darwin(١٨٠٩-١٨٨٢م) عالم حيوان انجليزي، اشتهر بمذهب التطور، من مؤلفاته: أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي، سلالة الانسان والانتخاب الجنسي ،تغير الحيوان والنبات تحت تأثير الاستئناس "في مجلدين" ،التعبير عن الانفعالات في الانسان والحيوان .

[٧٠] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة،ص:٥٢

ذات الحدين binomial theorem،تعبر عن قيمة أي قوة أو أي كمية قائمة في حدين الى نهاية الزمن."[٧١] أيضا تتشكل من هذه العلاقات الواسعة والثابتة عوالم الفكر الجديدة." فالحدود عبارة عن عناصر- أو تتألف من عناصر-جردت من التدفق الادراكي، ولكننا نلاحظ في شكلها المجرد علاقات قائمة بينها (ثم علاقات بين هذه العلاقات)تمكننا من أن نضع مشروعات متعددة لأنظمة متتابعة محددة ،ولروابط متفاوتة. والألفاظ أو الحدود هي في الواقع من صنع الانسان، ولكن النظام وهو ينجم عن المقارنة، تحدده طبيعة الألفاظ من ناحية وقوة ادراكنا للعلاقات من ناحية أخرى."[٧٢]

ويرى جيمس أن وجود التصورات لا يقتصر على الادراك الحسي الحالي، وإنما بالإمكان ابتكار تصورات جديدة من عناصر قديمة. " .. مضمون الشعور لا يتألف فقط من معطيات الحس الحاضرة مباشرة، بل يوجد الى جانب التجربة التي نعانيها الآن في الحاضر "أفكار"، تمكننا الذاكرة والمخيلة من استخراجها من الادراكات الحسية، وهذه الأفكار تحيل الى أمور تتجاوز التجربة الحسية الحاضرة وتزودنا "بمعرفة "عن تجربة ماضية وأخرى مستقبلة. وبعض الأفكار تستأثر باهتمامنا، وتستولي على تفكيرنا، تاركة ما عداها في الظل والإهمال. ولما كانت كل "فكرة " بسبب فعاليتها ونشاطها هي فكرة محركة motor idea وتنصب في الفعل ،إلا إذا أعاقتها أفكار أخرى، فإن المدركات التي تسيطر على فكرنا هي أيضا مدركات توجه سلوكنا. "[٧٣] كذلك لا يمكننا تخطي عالم الاحساسات أو تجاوزه إذا أردنا الوصول الى المعرفة، ولا معنى للتصورات في ذاتها إذا لم تكن تستند الى مدركاتنا الحسية ،يقول جيمس: "يأتي الواقع أولا ثم تأتي التصورات بعده، لكنها لا تكافئه أو تتساوى معه."[٧٤] وعندما يتم تكوين خريطة التصورات فإنها تكفي جميع أنواع الدراسة -في العلوم الأولية وعلوم الطبيعة -ويصبح لها وجودها المستقل ،وواجبنا أن نقر بما تحويه من حقائق أزلية حتى في حال انعدم فيها عالم الحس.".. كلما كان هذا النظام أثبت كان أكثر صدقا وأقل وهماً من النظام الحسي ،وينبغي أن يستأثر استئثاراً أعظم بانتباهنا ."[٧٥]

مما سبق نجد جيمس يقر بأن مصدر المعرفة هو الفهم المشترك، وأن التصورات من صنع الانسان، جردها من تيار المدركات الحسية ثم تأصلت في حياته لأنها نافعة ومفيدة. وذهب الى أن المنهج البرجماتي يؤكد أن عالم التصورات ليس عالماً قائماً بذاته ولكنه يتوقف على علاقته بالتجربة الحسية. "تتوقف الحياة العقلية عند الانسان كلها على التقريب، على استبداله النظام التصوري بالنظام الحسي الذي جاءت منه أصلا تجربته. "[٧٦] وهكذا فإن جيمس لا يلغي وجود التصورات، ولكنه ينتقد رؤية الاتجاه العقلي لطبيعة التصورات ودورها.

٤-أهمية التصورات ودورها:

---

[٧١] المرجع السابق ،ص:٦٥

[٧٢] د. محمد فتحي الشنيطي، مشكلات فلسفية "كارل ياسبرز، ووليم جيمس" ،مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى ،عام ١٩٥٧م ،ص:١٥٦-١٥٧

[٧٣] عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ، ص:٤٤٨

[٧٤] جيمس ،عالم متعدد،ص:١٤٠

[٧٥] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة ،ص:٦٦

[٧٦] المرجع السابق،ص:٥٢

أكد جيمس على قيمة التصورات وأهميتها ،ورأى لها دوراً جوهرياً تؤديه في الحياة الانسانية ؛ فنحن عندما نستعيض عن التيار الحسي المباشر بتصورات مترابطة فيما بينها سوف يتسع نطاق مشهدنا العقلي، وتتسع معارفنا في الحياة العملية. " تساعدنا التصورات والقدرة على التجريد على الانتقال بين جوانب الواقع كما لو كان لدينا بعد رابع للمكان."[٧٧] واذا كان الادراك الحسي يقتصر على ما هو هنا وما يجري الآن ،فإن التصور ينصب على ما يماثل وما لا يماثل في الحاضر والمستقبل والماضي البعيد. أيضا تساعدنا التصورات على فهم مدركاتنا الحسية والقدرة على التعبير عنها على نحو أفضل. "نحن نستعيض إذن بالمفسرات عن الاحساسات التي غدت متصورة عقليا، فالتفسير معناه التنسيق بين الواحد والآخر من أجزاء التيار الحسي، وأجزاء النظام العقلي حيثما كانت."[٧٨] مثال ذلك النظام التصوري للطبيعة ،الذي ساهم في تفسير نظامها الحسي تفسيرا نظريا، وساعد على فهمها. ومن ثم فإن المجردات ضرورية و لا يمكن الاستغناء عنها في فهم المحسوسات. ويشبه جيمس حاجتنا لها كحاجة السمك الى هواء البحر.

ذهب جيمس الى أن نظام التصورات عبارة عن خريطة واسعة من العلاقات القائمة بين عناصر الأشياء، التي تساعدنا على القبض على التيار الحسي المتدفق بما يلائم أهدافنا، وترشدنا في حياتنا العملية وتوجهنا نحو الطرق التي يجب أن نسلكها، وبها نتعرف على تجربتنا وحدودها ؛فهي تساعدنا على فهم الماضي على نحو أفضل، وتثب فوق تجربتنا بدلا من الغوص فيها ، ونشكل من موادها أشكالا نظرية بقدر ما يستطيع عقلنا أن يشكل .يقول :".. إنها ملكة تنضاف الى وعينا الحسي العاري لتهيئنا في الميدان العملي ، للتكيف ببيئة أوسع من البيئة التي يعيش فيها الحيوان .. إننا نرتب الواقع الحسي في تصورات لنستغله فيما يلائم أهدافنا ملاءمة أفضل ."[٧٩] ويرى جيمس أنه لولا التصورات لعشنا ببساطة عند لحظات تجربتنا الواحدة إثر الأخرى، ويشبه حالنا بدون التصورات، بحيوان البحر الذي يربض على صخرته متقبلا ما تأتي به الأمواج من فضلات طعام .

كما تساهم التصورات في الكشف عن مستوى أعمق لحقيقة الأشياء بالنسبة لنا. وذلك عبر الفروض التي تفسر النظام الحسي تفسيرا نظريا ،وتربط الأشياء بعللها التي نتجت عنها. لأن فهمنا للشيء يرتبط بمدى احاطتنا بعلله. يقول جيمس: "ثمة عامل خيالي يستخفي على النظر ،ينطوي في محتوى العالم، ونحن نضع مكانه المدرك الحسي الذي نبغي تفسيره، وتتوقف صحة التفسير على مدى تصور العلة تصورا يجعل وجودها مرجحا لصلتها بالمعلولات التي تنجم عنها، ويلوح أن تفسيراتنا العلمية كلها تطابق هذا النمط البسيط" ضرورة القطة لكسر الفنجان"."[٨٠] وعندما نعمل على بينة من علل الأشياء، تتحقق لنا منافع لم نكن لنجنيها لو كنا نعمل مقتصرين على الأشياء وحدها كمدركات حسية. و يصف جيمس النظام التصوري بأنه في جوهره نظام طوبوجرافي- نظام توزيع الأشياء- يفيدنا في إدراك العلاقات التي نتساءل عنها، وفي تجلية نتائجنا العملية، وهذه هي المنفعة العملية التي نجنيها من ملكة التصور.

---

[٧٧] جيمس، عالم متعدد،ص:١٢٩

[٧٨] جيمس ،بعض مشكلات الفلسفة ،ص:٦٦

[٧٩] المرجع السابق ،ص:٦٢

[٨٠] المرجع السابق ،ص:٦٣

وعلى العكس من ديكارت رأى جيمس أن جميع التصورات التي نجدها في انفسنا، نتجت عن ارتباطها الجوهري بخبرتنا الحسية ودور الإرادة الانسانية فيها. وتكمن أهميتها في أنها تأتينا بقيم جديدة في حياتنا وتنعش إرادتنا باستمرار؛ لأن استخدامنا الواسع لها يجذب اهتمامنا الى أفكار جديدة ويوجهنا في أعمالنا على نحو أكثر فاعلية. "الى جانب وظيفتي المقارنة ورسم الخرائط يقدم لنا مجالات جديدة للقيم وبواعث دافعة للحياة. لا تخدم الخرائط التي تقدمها لنا النواحي العملية فقط وإنما يعد امتلاك هذا القدر الكبير من الصور في حد ذاته شيئا ملهما. حيث تظهر اهتمامات جديدة ،وتتولد لدينا مشاعر القوة والفخر والإعجاب والسمو."[٨١] و يشبه جيمس دور التصورات بالنسبة للإدراك الحسي بعلاقة حاسة البصر بحاسة اللمس؛ فالبصر يعيننا على الاحتكاك بالملموسات في الوقت الذي لاتزال فيه بعيدة عنا، وينعم علينا-فضلا عن ذلك-بعالم جديد تتجلى فيه روعة الرؤية، وهذا ما تفعله التصورات حين تضفي على عالمنا روعة وجمال .

وعلى الرغم من أهمية التصورات إلا أنها تظل في رأي جيمس قاصرة لا تستطيع فهم الادراك الحسي .ويعود السبب في ذلك الى أمرين :الأول أننا حينما نستبدل التصورات بالمدركات الحسية ،فإننا نستبدل أيضا علاقاتها. والمعروف أن علاقات التصورات ثابتة ،لذلك من المتعذر استبدالها بالعلاقات المتغيرة التي تملأ تيار الادراك الحسي. ولا تقتصر التصورات على الكيفيات والعلاقات فحسب وإنما الأحداث والأفعال كذلك. واذا كانت تدل على وجود نشاط إلا أنها ذات طبيعة ثابتة .يقول:".. حين نستعيض عنها وعن نظامها فإننا نستعيض عن نسق لا تتحول طبيعته الثابتة في صميمها، لأن بعض حدودها ترمز الى أصول متغيرة .فمثلا تصور "التغير" هو دائما ذلك التصور الثابت ،فلو تغير لظل أصله كما هو ليدل على الأصل الذي تغير عنه."[٨٢] ومثل هذه الاختلافات يتم تصورها على أنها علاقات ثابتة تماما. والأمر الثاني: أن النسق التصوري يتألف من حدود متقطعة لا يمكن أن تغطي تيار الادراك الحسي المتغير باستمرار إلا في نقاط فقط، وعلى نحو غير واضح. "التصور لا يأتي على مقاس الادراك الحسي. فكثير من القسمات الجوهرية لتيار الادراك الحسي تفلت حين نضع تصورات مكانها."[٨٣]

ويشير جيمس الى أن التصورات ليست متقطعة في وجودها؛ لأن التصور كفعل يعد جزءا من تدفق الشعور. ولكنها منفصله عن بعضها البعض في تعدد معانيها . أيضا لا يمكن استخدام التصورات في التكهن بتجارب جديدة، لأنها تستخلص من التجارب التي سبق ومرت بنا أو شاهدناها ولا يمكن فعل ذلك إلا في حدود قديمة وجاهزة . "الحق أن التصورات هي استعدادات تالية للموت Posr-mortem كافيه فقط للفهم المحيط. وحين نستخدمها لتعريف العالم تعريفا مستقبلا، فإننا نتبين أنها يمكن فحسب أن تزودنا باطار عار مجرد ،أو تخطيط تقريبي ،يلزم شغله بالإدراك الحسي."[٨٤]. إذن التصورات مهمة ولكن ليس لها السيادة، وغير ملائمة لمعرفة صميم الواقع الذي ينبغي أن نعرفه ،ولا يمكن لها أبدا أن تحل محل الادراك الحسي، لأن تناول الواقع الحسي تناولا تصوريا ،يجعله يبدو متناقضا وغير مفهوم. "إن الواقع يتألف من أجزاء موجودة مثلما يتألف من ماهيات وكليات واسماء نوع. ونحن لا نكون على بينة بالأجزاء الموجودة بالفعل إلا في تيار الادراك الحسي وحده. وليس في الوسع تخطي هذا التيار البتة، فيجب أن نحمله معنا

---

[٨١] جيمس ،عالم متعدد ،ص:١٣٢(الهامش)
[٨٢] جيمس، بعض مشكلات الفلسفة،ص:٧٦-٧٧
[٨٣] المرجع السابق ،ص:٧٥.
[٨٤] المرجع السابق ،ص:٨٩-٩٠

الى أقصى نهاية في مهمتنا من أجل المعرفة. محتفظين به في صميم ترجمتنا، حتى وإن أتت هذه الترجمة مشرقة، ونعود إليه وحده حين نقصر هذه الترجمة. إن الاحساس لا يقهر، هذا هو تعبير موجز عن رأيي. "[٨٥]

المبحث الرابع-العلاقة بين المدركات الحسية والتصورات العقلية:

يسلم جيمس بأهمية المدركات الحسية ،ولم يلغ دور العقل . ويذهب الى أن الموقف الوسط بين وجهتي النظر العقلية والتجريبية هو ما يجب أن يأخذ به المفكرون ."يتيسر لنا على ذلك أن ننظم الى فريق العقليين في التسليم بأن المعرفة التصورية مكتفية بذاتها، بينما نستطيع أن ننظم في نفس الوقت الى التجريبيين في أخذهم بأن القيمة الكاملة لمثل هذه المعرفة تجتمع لها فحسب إذا عدنا لربطها بالواقع الحسي."[٨٦] و يحاول جيمس التوفيق بينهما، ولكن بصورة مختلفة تتفق مع كانط حول أهمية التجربة ،ولكن وفق رؤية سيكولوجية لطبيعة التجربة يستبعد منها أي دور تركيبي للعقل .فاذا كان كانط قد رأى: ".. أن جميع معارفنا تبدأ بتجربة، ولكن تجاربنا مرتبطة بجسد ذي مدخل محدود الى المعرفة.. وتجاربنا ليست خالصة ومباشرة ،وإنما تركيبية ومتوسطة. بمعنى أنها تنتج عن توسط الدور التركيبي للعقل في معرفة الطبيعة "[٨٧].فإن جيمس يؤكد على أنه لولا المدركات الحسية لما وجدت التصورات ،التي نشأت عن عملية فصل الاحساسات عن بعضها البعض. وفي الوقت ذاته لا تعني المدركات الحسية شيئا دون تدخل الوعيConsciousness . وتتضح العلاقة بينهما من خلال موقفه من الثنائية ورؤيته للصدق

أولا- الثنائية:

ناقش الفكر الفلسفي الحديث طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع، ورأى بأنهما متقابلان ومتمايزان؛ فالعالم الخارجي له وجوده المستقل عن الذات العارفة، أما الوعي فهو مصدر أفكارنا ومنبعها، وبأن وجودهما معا ينطوي على تناقض. وعُرف التمييز بينهما بالنظرية الثنائية *وقد

---

[٨٥]المرجع السابق،ص:٧٣-٧٤

[٨٦] جيمس ،المرجع السابق ،ص:٥٧

[٨٧] برتران سان سرنان، العقل في القرن العشرين، عرض وتقديم؛ اماني البداح سلسلة عالم الفكر(التحولات في الفكر الفلسفي المعاصر)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ،مجلد (٣٠)،٢٠٠٢م،ص:١٤٥

* Dualisim؛ تمثل عادة التمييز بين الأفكار والأشياء المدركة، أحد مباحث نظرية المعرفة، اختلفت فيه الآراء حول أهمية ودور كل منهما في عملية المعرفة. وتعود فكرة التمييز بينهما الى الفكر اليوناني ؛فقد أكد "بروتاجوراس" على أهمية المدركات الحسية ولم يعط للتصورات أي أهمية في تكوين معارفنا ،وأشار سقراط الى أهمية الكليات ثم تبعه افلاطون يبين قيمة الكليات وأهميتها في ادراك الحقيقة وعبرت نظريتة في المثل عن نموذج للتمييز بين الأشياء والأفكار .ورأى أن الوصول الى معرفة يقينية تقتضي تدخل العقل. "العلم لا يقوم على الاحساسات، بل يستند الى تعقل الاحساسات، إذ به يمكن أن نصل الى الوجود والى الحقيقة ولكن بغيره لا يمكن."(انظر: افلاطون، محاورة "ثياتيتوس"، ،ت: د. اميرة حلمي مطر ،دار غريب، القاهرة، عام ٢٠٠٠م ،ص:٩١). وظهرت الثنائية في المنظومة الفلسفية الارسطية في فكرته حول المادة والصورة - مثلت المادة أو الهيولي اللامتعين والامكان الوجودي ،في حين مثلت الصورة المتعين والوجود الفعلي- وإذا كان "ارسطو" قد انتقد نظرية "افلاطون" في المثل إلا أنه اتفق معه حول امتياز الحياة التصورية وسموها. "من فقد حسا فقد فقد علما، هذا والماهية هي التي يقوم عليها العلم لأنها كلية Universal،إذ العلم علم بما هو كلي" ولا علم إلا بالكلي " كما يقول ارسطو".(انظر:د. محمد ثابت الفندي ،مع الفيلسوف، دار النهضة العربية-بيروت، عام ١٩٨٠م،ص:١٥٢). ومع الفكر الحديث توثقت نظرية التمييز بين الأفكار والأشياء ،والمقابلة بين المدركات الحسية والتصورات ،وصنف على إثرها الوعي الاوروبي الى تيارين متضادين هما العقلانية والتجريبية. وضعت الأولى الأنا في مواجهة الفكر ورأت في العقل المصدر الحقيقي بما يحتويه من مقولات لإدراك ماهية الأشياء وعلاتها وأكدت على أهمية البديهيات والمنهج الاستبطاني. ووضعت التجريبية الأنا في مواجهة الواقع ورفضت المسلمات كلها بدون استثناء ورأت اليقين في منهج الاستقراء القائم على الخبرة الحسية والتجربة والمشاهدة. وفي الفكر المعاصر وجدت امتدادات لكل من التيارين العقلي والتجريبي بصور مختلفة . وتعد نظرية الثنائية أحد المحاور الأساسية في فلسفة جيمس التجريبية.

ظل جيمس لفترة يسلم بصحة ذلك ،لكنه أدرك أن التفكير على هذا النحو يمثل عقبة أمام الفهم السليم لنظرية المعرفة .وحاول تقديم تصور جديد لطبيعة هذه العلاقة .

تقوم رؤية جيمس على فرضية أن التجربة تسبق من الناحية المنطقية أي تمييز مسبق بينهما، أومنها أتى كلاهما. " إن الأفكار في الواقع مصنوعة من نفس مادة الأشياء."[٨٨] والفكرة الرئيسية التي أراد التحقق منها هي الاستعاضة عن التناقض الثنائي بين الجسم والعقل بمجالات من الخبرة الصرفة. وفيها يحاول ربط الوعي بالواقع التجريبي الملموس بعيدا عن التأمل والتجريد ،لتصبح الأفكار جزءا من التجربة ."في محل الأفكار والأشياء لا توجد سوى "خبرات فقط"." [٨٩] ورأى أن التمييز بينهما هو تمييز وظيفي ينشأ من الخبرة؛ فإذا سمينا الشيء الموجود في الخبرة "مدرك حسي"، فإن التصور هو مدرك حسي بديل لمدركات حسية أخرى تقوم بتوجيه السلوك اليها. يقول : "نظريتي هي أنه إذا بدأنا بافتراض أنه ليس هناك سوى مادة أولية في العالم يتألف منها كل شيء ، ونسميها "بالخبرة الخالصة"، فإنه يمكن بسهولة تفسير المعرفة بأنها نوع محدد من العلاقة تنتمي اليها كل أجزاء الخبرة الخالصة.. هذه العلاقة ذاتها أحد أجزاء الخبرة الخالصة، ويصبح أحد حدود تلك العلاقة الذات العارفة أو العارف، وحدها الآخر الشيء المعروف أو موضوع المعرفة."[٩٠] وهنا يصف جيمس التجربة بأنها واحدية محايدة، لا تتضمن أي اختلاف جوهري بين الظواهر النفسية والظواهر الفسيولوجية ." الواحدية المحايدة عنده تعرف المادي والروحي بأنهما جانبان مختلفان "لخبرة " واحدة. وليس الاختلاف بين العقل والمادة إلا اختلافا في التنظيم. "[٩١]

وهناك تداخل بين الذات والموضوع-حدان متضايفان- داخل محتوى الخبرة، ولا يمكن الفصل بينهما. يقول جيمس: " أعني بذلك أنه لا موضوع، ولا ذات، لكن موضوعا مضاف الى الذات، ذلك أقرب ما يكون الى الحقيقية."[٩٢] وهما ليسا عنصرين ولا يمكن الانتفاع بأحدهما دون الآخر. فالعالم الذي نعيشه يصعب فيه التمييز بين مساهمة العقل ومساهمة الحس؛ لأن الادراك الحسي يعجل بفكرنا ،والفكر بدوره يثير ادراكنا الحسي. "كلما زادت رؤيتنا زاد تفكيرنا، بينما كلما زاد تفكيرنا زدنا رؤية في تجربتنا المباشرة، وزاد نمو التفاصيل، وزادت حلقات ادراكنا."[٩٣] ولا يمكن معرفة الحقيقة الواقعية إذا أخذ كل واحد منهما على حده ،و تنوعهما يعطي لكل منهما استقلاله. فقد جاء عن ارسطو قوله: "إنه لابد من تعاون الادراك والتصور من أجل الوصول الى معرفة كاملة بالواقع."[٩٤] لذلك رأى جيمس صعوبة أن يقتصر الانسان على أحدهما دون الآخر- المدركات الحسية والتصورات- فحاجتنا لكليهما كحاجتنا الى ساقين معا لنسير بهما. ويشبه علاقتهما بدور المقص الذي لا يستطيع أن يقطع بإحدى نصليه دون الآخر. "لا يمكننا إدراك الواقع بدون شعور يعيد بناءه بطريقته الخاصة، ولا يمكن معرفة الشعور بدون واقع يعيد بناءه بطريقته العامة."[٩٥]ويشبه جيمس العلاقة بينهما داخل محتوى الخبرة بأنها أقرب ما تكون الى ما نجده في المناظر الاسطوانية حيث البطانة الملونة تواصل صدور الصورة الحقيقية بغاية من الدقة، يعجز فيها المرء عن اكتشاف الفاصل بينهما.

---

[٨٨] موريس، رواد الفلسفة الامريكية،ص:١٦٢

[٨٩] رالف بيري، أفكار وشخصية وليم جيمس ،ص:٣٨٤

[90] William James, Radical Empiricism, p:4

[٩١] م. روزنتال ، الموسوعة الفلسفية"،ص:١٧٣

[92] William James, Radical Empiricism ,p:5

[٩٣] جيمس، بعض مشكلات الفلسفة،ص:٩٦

[٩٤] المرجع السابق ،ص:٥٢-٥٣

[٩٥] جيمس،البراجماتيه،ص:٣٨٦.

ويعرض جيمس لعدد من الأمثلة يبين فيها تداخل الموضوع وفكرتنا عنه ، وكيف أن تداخلهما يبدو لنا مرة كواقعة فيزيائية ومرة أخرى كواقعة من وقائع الشعور. ".. إن فكرتي عن الشيء والشيء نفسه، ليستا حقيقتين مختلفتين، بل حقيقة واحدة، إذا نظر اليها من الناحية السيكولوجية كانت فكرة، وإذا نظر اليها نظرة موضوعية كانت الشيء الفيزيقي نفسه. وهذا الرأي يعارض رأي التجريبيين الذين قالوا بوجود أفكار تنوب عن الأشياء أو ما يمكن أن نسميه تمثلات Representations ."[٩٦] مثال ذلك: إذا افترضنا أنك جالس في حجرة المكتب بما تحويه من طاولة وكراسي وكتب وغيره، هنا سوف نلمس وجود واقعة بسيطة أو تجربة أصيلة هي تجربة الحجرة، وتبدو لنا هذه التجربة في صورتين في وقت واحد: تتضح الصورة الفيزيائية في علاقة الحجرة بسائر الحجرات في المنزل، فهي موجودة في مكان ولها دوام في زمن وخاضعة لقوانين الطبيعة، مثل افتراضنا أنه في حالة حدوث حريق في الحجرة سوف تلتهم كل ما فيها من أشياء. أما الصورة الأخرى الفكرية؛ تبدو لنا فيها الحجرة مجموعة من الاحساسات والتصورات والذكريات. "..واللوحة المعروضة في متحف أو في معرض للرسم، هي في الوقت نفسه شيء وفكرة، فهي تشكل جزءا من عالم الأشياء الذي له تاريخه، وعالم الأفكار الذي له أيضا تاريخه، والسيرة الذاتية لمن ينظر الى اللوحة."[٩٧] وهكذا تبدو لنا التجربة الواحدة في مظهرين في نفس الوقت، وأن ما يحدث من تفرقة بين الشيء المادي والفكري ليست تفرقة طبيعية وإنما هي مصطنعة. وقد علق "رسل"* على موقف جيمس من الثنائية بقوله:" أنا من جانبي مقتنع بأن "جيمس" كان على حق من هذا الأمر، ويستحق على هذا الأساس وحده، منزلة عالية بين الفلاسفة. وقد كنت أظن غير ذلك حتى أقنعني هو وأولئك الذين يتفقون معه بصدق نظريته."[٩٨]

ثانيا- الاتفاق بين الفكرة و موضوعها:

انتقد جيمس التفسيرات السابقة لطبيعة اتفاق الفكرة مع موضوعها ،لقصورها في رأيه عن عبور الهوة بين الفكرة وموضوعها؛ فقد اعتقد العقليون بمحدودية العقل الانساني وعجزه عن القيام بمهمة الربط بين الأفكار وموضوعاتها ،وافترضوا وجود المطلق ليقوم بهذا الدور. وأعطى التجريبيون للصور الذهنية مهمة الوسيط الذي يربط بين الذات وبين الموضوعات الخارجية. وذهب جيمس الى أن الاتفاق قد يعني النسخ أو المحاكاة ولكنه ليس ضروريا، لأن هناك كثير من الحقائق عبارة عن رموز ولا تستطيع أن تنسخ موضوعها. فالزمن الماضي أو القوة أو التلقائية حقائق لا يمكن لعقولنا أن تنسخ أو تحاكي مثلها. كذلك لا يعني الاتفاق أن أفكارنا صحيحة مادامت هي ما ينبغي أن نفكر به عن ذلك الموضوع. ويعرض جيمس لموقفه في ثنايا نظريته

---

[٩٦] د. عبد الوهاب جعفر ،مقالات الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية- الاسكندرية،١٩٨٨م ص:٢٥٠

[٩٧] جيرار ديودال، الفلسفة الامريكية،ص:٢٤٠-٢٤١

* Bertrand Russell(١٨٧٢-١٩٧٠م) فيلسوف انجليزي، كانت شهرته في ميدان الرياضيات والمنطق الرياضي ،الى جانب مواقفه وكتاباته السياسية والاجتماعية. من مؤلفاته: مبادئ الرياضيات، القوانين الأساسية لعلم الحساب، السلطة تحليل اجتماعي جديد، تاريخ الفلسفة الغربية. أراد رسل أن يحرر الفلسفة من الثنائية القديمة فقال بأنه لا يوجد خط فاصل يعزل العقل عن المادة –لأنهما عبارة عن بناءين منطقيين، استمدا من الأحداث الذهنية والجسمية على التعاقب- و بأنهما يختلفان درجة وليس نوعا. وقال بنظرية الواحدية المحايدة Neutral Monism :"..العقل والمادة كلاهما مشتق من "هيولي "محايدة لا هي عقل ولا هي مادة، لكن أجزاءها إذا ما ارتبطت بمجموعة معينة من العلاقات أسميناها عقلا ،وإذا ارتبطت بمجموعة أخرى من العلاقات أسميناها مادة، وأما المادة الخامة، أو "العجينة"، أو المبدأ الذي منه يتكون العقل والمادة كلاهما فعلى الحياد، لا هو عقل ولا مادة..."(انظر: د. زكي نجيب محمود ،برتراند رسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربي(٢)،دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية،ص:١١٠).

[٩٨] رسل، تاريخ الفلسفة الغربية(الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة)، ت:د.محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،عام ١٩٧٧م ،ص:٤٦٦

في الصدقTruth*- والتي تمثل مبحثا في نظرية المعرفة- بين فيه طبيعة العلاقة التي تربط الذات بالموضوع .

١ـتصور جيمس للصدق:

يستهل جيمس حديثه عن الصدق بالتأكيد على أهمية الجانب التجريبي والحسي بعيدا عن التفسيرات الكلامية الغامضة. لذلك وصف التصورات العقلية لمفهوم الصدق بالإفلاس لاعتقادهم بأنه ثابت وأزلي ومفروض علينا من الخارج ولا صلة له بالإنسان أو بالتجربة، لكنه يستطيع أن يتصل بهما ،ومن خلال هذا الاتصال يستطيع العقل ادراكه ،كما يستطيع الوصول الى فهم الأشياء ومعرفتها. "عندما يكشف هذا الحق نفسه للعقل الانساني يصبح العقل قادرا على ادراك الأشياء أو حقائق الوجود وفهمها. والرأي الذي يرتئيه العقل في أي وقت من الأوقات يكون صحيحا إذا ما وافق هذا الحق، لأنه إذا وافق الحق وانطبق عليه فهو بالطبيعة يوافق الحقيقة وينطبق عليها."[٩٩] وذهب جيمس الى أن العقلانيين ينتزعون الحقيقة ويجردونها من محسوسات الخبرة ثم يستعملونها بعد ذلك لمعارضة وإنكار ما انتزعت منه. فنحن على سبيل المثال نسمع عن الكرم المجرد والعدالة المجردة والجمال المجرد، ولا نقابلهما في الشارع على الرغم من كونهما معاني دارجة وشائعة في حياة الانسان. كذلك يتسم الحق في نظر العقليين بالواجب والإلزام بعيدا عن أي اهتمامات عملية أو أي دوافع سيكولوجية ."المذهب العقلي ينكفئ الى المبادئ ويعتقد أنه بمجرد أن يسمي "مجردا" ما فإن لدينا حلا فاصلا قاطعا."[١٠٠] ويؤكد جيمس على أن الاعتراف بأن الحقائق المجردة ملزمة لن يساعدنا في التقدم خطوة الى الأمام في تفكيرنا الواقعي. كما أن تصور الحق على أنه الاجابة الوحيدة عن لغز الواحد والثابت سوف يوجه النظر نحو الماضي ، وليس باتجاه المستقبل الذي تربط به البراجماتية موقفها من الحق.

ويعرف جيمس الصدق بأنه ".. صفة أو خاصية لأفكار معينة، وهذه الصفة تعني "اتفاق" هذه الأفكار مع الحقيقة أو الواقع، تماما مثلما يعني الزور اختلافها مع الحقيقة أو الواقع."[١٠١] ويتفق في ذلك مع أتباع الاتجاه العقلي ،لكنه يختلف عنهم في تأويل لفظ "اتفاق" على وجه التحديد، وما الذي يعنيه لفظ الصدق الذي تتفق معه أفكارنا. ويقدم رؤية جديدة تنص على أن اتفاق الفكرة مع موضوعها يتم عبر علاقة تربط بينهما، هذه العلاقة تسمى بالصدق. يقول: "إن الجزء المحوري الذي يدور عليه كتابي الموسوم بالبراجماتية هو إفادة عن العلاقة المسماة "الصدق " التي تحصل بين فكرة(رأي ،معتقد، تعبير.. وما الى ذلك) وبين موضوعها ."[١٠٢] وتصدر هذه العلاقة عن فكرة، والغاية التي تهدف اليها هي الحقيقة الموضوعية المتميزة عنها ،والصدق هو حكمنا على هذه الحقائق ."يجب أن يتم الصدق بين فكرة وواقع هو موضوع تلك الفكرة، كما يجب أن يكون

---

* ناقش جيمس نظريته في الصدق، في كتبه :"البراجماتية" و"معنى الصدق". وقال: "أن تأسيس النظرية البراجماتية عن الصدق وارساء قواعدها، يعد خطوة من الدرجة الأولى من الأهمية، في جعل التجريبية الراديكالية تسود وتهيمن."(انظر The Meaning of James, Truth ,p:5).ونشير هنا الى أن مصطلح Truth جاء في بعض الترجمات بمعنى الصدق وفي أخرى بمعنى الحقيقة. مما أحدث نوع من الغموض في فهم الفكرة. وذلك نظرا لوجود فرق بين تصور كل من الحق أو الصدق و الحقيقة؛ فالصدق في الفلسفة صفة للكلام أو حكم على الاشياء، أو رأينا فيها. بينما الحقيقة هي الأشياء الموجودة أو الشيء الذي نحكم عليه.

[٩٩] يعقوب فام ،البراجماتيزم أو مذهب الذرائع، دار الحداثة للطباعة والنشر-بيروت- الطبعة الثانية ،١٩٨٥م،ص:٢٥٤

[١٠٠] جيمس ،البراجماتيه ،ص:٢٦٧

[١٠١] المرجع السابق ،ص:٢٣٣-٢٣٤.

William James ,The Meaning of Truth ,p:2

الصدق محمولا يطابق الفكرة لا موضوعها"[١٠٣] ولهذه العلاقة محتوى، ويمكن معرفة طبيعتها وتفسيرها ووصفها بألفاظ محددة. ومن ثم فإن الصدق يتصل بالفكرة ومدى تحقيقها. يقول جيمس: "البراجماتيون عندما يتحدثون عن الصدق فهم يعنون تفردا شيئا عن الأفكار ،وهو استخداميتها ؛في حين أن المنتقدين للبراجماتيه عندما يتحدثون عن الصدق فإنهم في الأغلب على ما يبدو يعنون شيئا عن الموضوعات."[١٠٤]

وبناء على ذلك فإن وجود الصدق يعتمد على الشخص ويرتبط بالتجربة المتغيرة. لأن الإنسان هو من يفترض الأفكار ليوجد توافق بينه وبين العالم أو بين أهدافه النظرية والعملية في الواقع ،وهو من يصف الفكرة بأنها صادقة، إذا قادته الى الغاية التي يسعى اليها، وحققت له النفع والفائدة ويصفها بالكذب إذا لم تحقق له ذلك. " ليست الحقيقة تصورا مطابقا لشيء كما يعتقد عامة الناس، ولكنها التصور الذي يؤدي بنا الى الإحساس بشيء أو الى تحقيق غرض ،وفي الحالتين الخطأ هو الاخفاق."[١٠٥] ويتفق جيمس مع كل من شيلر وديوي في أن الحق لا يمثل غاية في ذاته وإنما وسيلة أو طريق سير نمشي في الحياة على هداه. "الحق" هو طريقة عمل، هو طريقة أداء من شأنها أن تنجز أمرا و أن تحقق هدفا."[١٠٦]

كما يشير لفظ "الصدق" عند جيمس الى أهمية الجانب العملي ؛لأن التجربة تظهر الحقيقة من خلال الواقع، حيث التأثير المتبادل بين الفكرة والموضوع المراد معرفته. " القول بأن الصدق يحدث للأفكار يعني أن الصدق جزء من الخبرة ."[١٠٧] و الأفكار في رأيه تصبح صادقة بواسطة الأحداث ." الصدق يحدث للفكرة، والأحداث هي من تجعلها حقيقية أو صحيحة ."[١٠٨] ومن ثم فإن معيار صحة الفكرة أو صدقها ليس صفة ثابتة أو ملازمة للفكرة ،وإنما شيء يحدث لفكرة ما، وصدقها يأتي من اثباتها لنفسها.. كذلك يساعدنا الصدق على أن نعالج الواقع أو متعلقاته عمليا و نظريا .

ويتسم الصدق في فلسفة جيمس بالتغير المستمر ،لأن الواقع و الحقائق التي يكتسبها الناس عنه في حالة تغير وتطور وانتقال نحو هدف ما ؛فما يبدو اليوم على أنه حقيقي ونافع ويلاقي مواءمة واتفاق، قد لا يكون كذلك في وقت لاحق نتيجة لتغير خبرتنا، بينما الحقيقي على الإطلاق لا يمكن لأي خبرة أن تغيره. "الحقائق تنبثق من الوقائع ولكنها تنغمس قدما في الوقائع مرة أخرى وتضيف اليها، والوقائع الجديدة بدورها تخلق أو تكشف عن حقيقة جديدة.. وهكذا الى مالا نهاية."[١٠٩] هناك إذن حالات للعمل والنشاط والاختبار في الحياة -ولامجال للتسليم بوجود حقائق جاهزة أو حق مطلق. وقد علق "برجسون" -في مقدمته للترجمة الفرنسية لكتاب البراجماتية - بقوله : "الحقيقة اختراع (شيء جديد)لا اكتشاف (شيء سبق وجوده)."[١١٠]

---

[١٠٣] د. ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة (١)،دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية،طبعة؛٢٠١٥م،ص:١١٧.

[104] William James ,The Meaning of Truth,p:5

[١٠٥] د. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم –بيروت" لا يوجد تاريخ للنشر أو الطباعة "، ص:٤١٨

[١٠٦] د. زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية،ص:٢١٥

[107] Samuel Enoch Stumpf ,Philosophy "History& Problems ",fourth edition ,McGraw-Hill Book Company ,new york,1989, p:417

[108] William James, The Meaning of Truth ,p: 2

[١٠٩] المرجع السابق ،ص:٢٦٥

[١١٠] د. يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص:٤١٨

ولا يكتفي جيمس بوضع الأساس التجريبي للصلة بين الفكرة وموضوعها ،ولكنه يستخدم المنهج ليصف لنا السبيل الذي تسلكه الفكرة ،بعيدا عن أية وثبة(مثل المطلق أو الصور الذهنية).

٢-وظيفة الافكار:

ذهب جيمس الى أننا نعيش في عالم من الحقائق والوقائع المتنوعة والمتصلة في سياق خبرتنا، التي نشعر بها باستمرار، والتي من الممكن أن تكون مفيدة الى غير حد أو ضارة ومؤذية. ويأتي دور الأفكار في مساعدتنا على التنبؤ بأي منها نتوقع، و ارشادنا الى سبيل التحقيق والوصول الى النتائج المرجوة منها في حياتنا. "الفكرة لا تكون صادقة إلا إذا ساعدتنا على التوصل الى النتيجة التي نرجوها، ولا تكون القضية صادقة إلا إذا أعانتنا على التقدم في البحث حتى نصل الى حل الإشكال الذي نبحث له عن حل. "[١١١] وينظر جيمس للفكرة باعتبارها خطة تمهيدية للعمل توجه الانسان الى ما هو نافع ومجدي، وتضع له القواعد التي يسير على هداها في حياته اليومية. ولا قيمة لها إذا ظلت تحيا في الذهن وحده. ويرتبط صدق الأفكار بقدرتها على أداء وظيفتها يقول:" هذه الوظيفة الخاصة بالإرشاد الموافق، هي ما نعنيه بتحقيق أو اثبات فكرة."[١١٢]

ويتم اثبات الفكرة أو اتفاقها مع الواقع بالرجوع الى ما يترتب عنها من نتائج Consequences عملية وفعالة وقيمة ؛ فإذا ما حدث فرق عملي للشخص يحسه ويلمسه في حياته الواقعية، ويحقق له الرضا، كانت فكرته صحيحة، وهذا الفرق هو كل ما نعرفه عن صدق الفكرة، وإذا لم يكن ثمة فرق عملي يمكن تتبعه واثباته، فإن أي خصام بشأنها نزاع عقيم لا جدوى منه. يقول جيمس:" لكي نبلغ الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع ما ،فإنا لا نحتاج إلا الى اعتبار ما قد يترتب من أثار يمكن تصورها ،ذات طابع عملي، قد يتضمنها الشيء أو الموضوع، وماهي الأحاسيس التي يتعين علينا أن نتوقعها منه، وما هي ردود الأفعال التي ينبغي أن نعدها."[١١٣] وينطبق ذلك على حياة الناس العلمية والعملية على السواء. ويستندون في ذلك على رصيد من خبرة حسية سابقة على ضوئها يفهم المراد. "الأفكار تصبح صادقة بقدر ما تساعدنا على أن نعمل ارتباطات ناجحة بين عدة أجزاء من خبرتنا .لذلك يكون الصدق جزءاً من خبرتنا في الحياة."[١١٤] ولا ينطبق ذلك على الأفكار النظرية المجردة التي يتداولها الفلاسفة- مثل القول بأن لكل شيء جوهر يكسب الشيء هويته-لأن قيمة الأفكار تشتق من الأهمية العملية لموضوعاتها بالنسبة لنا ." الأفكار الصحيحة هي تلك التي نستطيع تمثيلها واثباتها وتعزيزها وتوثيقها وإقامة الدليل عليها، والأفكار الخاطئة هي تلك التي لا نستطيع ذلك معها."[١١٥]

وتمثل النتائج الإيجابية -التي ترتبت عن الفكرة -الدافع وراء اتباعها واقتفاء أثرها. فهي تقودنا عن طريق الأفعال والأفكار الأخرى التي تحض عليها الى أجزاء أخرى من الخبرة التي نشعر بها باستمرار. "أي فكرة تحملنا بيسر من أي جزء من خبرتنا الى جزء آخر، بحيث تربط الأشياء على نحو مريح أو مرض، وبحيث تعمل بأمان ويسر وتوفر الجهد هي فكرة صحيحة الى هذا

---

[١١١] محمد مهران رشوان، مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة،١٩٨٤م، ص:٥٢

[١١٢] جيمس، البراجماتيه ،ص:٢٣٨

[١١٣] المرجع السابق ،ص:٦٥-٦٦

[114] Samuel Enoch Stumpf, Socrates to Sartre "A history of Philosophy ",fifth edition, MC Grow-Hill ,Inc. New York,1993,p:390

[115] David Stewart ,H. Gene Blocker, Fundamentals of Philosophy, second edition ,Macmillan Publishing Company ,New York,1987.p:248

الحد، صحيحة بهذا القدر، صحيحة ومفيدة."[١١٦] ووفقا لذلك يمكن تصور الأفكار على أنها ناجحة ممكنة التحقق ."..الأفكار الحقيقية إنما هي عبارة عن أفكار موجهة، أو فروض ناجحة أو عمليات مثمرة، وليس من المهم أن تكون ثمرة الفكرة مباشرة، إذ قد لا نستطيع أن نتوصل الى النتائج العملية المترتبة على فكرة ما من الأفكار بطريقة مباشرة، دون أن يكون في ذلك ما ينفي عن تلك الفكرة طابع "التحقق" أو إمكانية التحقق Verifiability، على الأقل."[١١٧]

ولا يكتفي جيمس بأن تكون العبارة ذات معنى ولكنه رأى ضرورة أن تكون الفكرة صادقة ونافعة في نفس الوقت ."..تكون الفكرة نافعة لأنها صادقة، أو أنها صادقة لأنها نافعة ومفيدة. "[١١٨] ولا يمكنها أن تكون نافعة إذا لم تكن منذ البداية تحمل هذه الصفة، سواء على نحو منفرد أو كفئة من الأفكار. "الفكرة تكون صادقة طالما كان الاعتقاد بها نافعا لحياتنا."[١١٩] فهي صادقة عندما تؤدي الى ادراك موضوعها، وبما تحققه من نفع وفوائد محسوسة. " تكون الفكرة صادقة حين ابدأ بعملية تحقيقها تجريبيا، واذا ما انتهت من مهمتها في الخبرة سميتها نافعة."[١٢٠] ويتمثل الصدق في مطابقة الأشياء لمنفعتنا وليس بمطابقة الفكرة للأشياء."... الرأي الصحيح هو ما ييسر لي سبيل الحياة ويعمل على توفيقها ونجاحها، والرأي الباطل هو ما يفعل عكس ذلك، أو ما لا أرى له أثرا في الحياة."[١٢١] والمنفعة هي التي تدلل على صدق الأحكام ."صحة المعتقد مرتبطة إذن بالفعل الذي تتحقق به منفعته. وعلى هذا فإن الفعل أو المنفعة هما الأصل لا التصور العقلي."[١٢٢] والمنفعة في رأي جيمس عامة ولا تقتصر على الجانب الفردي فقط ." ..لا يقصد بها إشباع الحاجات المادية للفرد وحدها، بل يقصد كذلك كل ما يساهم في تألق حياة الانسان والمجتمع."[١٢٣]

وبذلك يصبح الصدق تحقيقا للفكرة في مجال التجربة ."الأشياء تعتبر حقيقية، عندما تتطابق في تكوينها مع أفكارنا عنها، وفي نفس الوقت الذي اختبرناه فيه، من خلال تجربة الإثنين؛ الأشياء والأفكار، في مزج متبادل بينهما."[١٢٤] ويكون الشيء الجوهري والضروري في عملية الاتفاق بين الفكرة وموضوعها هو مسألة الاهتداء الى الحقيقة على نحو عملي ،وأن تمضي الفكرة بنجاح ويسر؛ سواء على نحو مباشر ويصفه بأنه تحقيق بالفعل ،أو بشكل غير مباشر ويسمى تحقيقا بالقوة.

ا -التحقيق المباشر:

---

[116] G. Wright Mill ,Sociology Pragmatism ,A Galaxy book ,New york,1966,p:239

[١١٧] د. عزمي عبد الفتاح البشندي، الفلسفة والواقع الانساني "دراسة في الفكر الفلسفي الحديث و المعاصر"،٢٠٠١م،(لا يوجد دار نشر)،ص:٢٩

[118] E.J. Ayer , philosophy in the twentieth century ,vintage books ,new york,1984, p:80

[119] G. Wright Mill ,Sociology Pragmatism,p:240

[120] David Stewart ,H. Gene Blocker, Fundamentals of Philosophy, p:250

[١٢١] د. زكي نجيب محمود، احمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، مكتبة النهضة المصرية-القاهرة، الجزء الاول، الطبعة السادسة، عام ١٩٨٣م ،ص: ٤١٠

[١٢٢] د. يحي هويدي، قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،١٩٩٣م،ص:١٣٧

[١٢٣] إ.م بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في اوروبا، ت:د.عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة(١٦٥)،المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب،١٩٩٢م،ص:١٩٦

[١٢٤] بيتر كاز، تاريخ الفلسفة في امريكا خلال ٢٠٠عام، ، ت:حسني نصار، مراجعة: د. مراد وهبه، مكتبة الانجلو المصرية،١٩٧٩م،ص:٢١٢

يمثل هذا النوع من التحقيق -في نظر جيمس- النسيج الأولي للحقيقة التي لا يمكن بناؤها بدونه. فيه تصل الفكرة بشكل مباشر الى مدرك حسي هو موضوعها ، في مكان ما فيحدث تكيفا مع الواقع . مثال ذلك :عندما أقول لك يوجد شيء ما، فإذا سألت ما المقصود ؟ قلت مكتب، ثم سألت أين يوجد؟ فأشرت بيدي الى مكان ما، وإذا سألت هل هو مكان مادي أم مجرد خيال؟ أجبت بأنه وجود مادي، ثم حددت لك المقصود به هذا المكتب بالذات .فاذا نهضت وأمسكت به ووجدته كما وصفته لك ،تكون الفكرة صحيحة .وفي مثال آخر يقول جيمس: إذا ظل أحدهم طريقه في غابه وتصور أن طريقاً بعينه يمكن أن يؤدي به الى حيث يجد المساعدة أو الأمان فإن فكرته هذه تمثل خطة للعمل أو الفعل ، فاذا ما قادته الفكرة من خلال تتبع الصورة الذهنية المتخيلة الى النتائج المتوقعة وتحققت بالفعل كانت الفكرة صادقة واكسبت صاحبها شعوراً بالرضا والارتياح. في مثل هذه الحالة يكون التطابق بين الفكرة والواقع بالفعل ،وفيه نصل الى موضوع محسوس .ويتفق في ذلك مع رؤية بيرس للمعنى.

ب-التحقيق غير المباشر :

ذهب جيمس الى أن الخبرة تهيء لنا أفكارا، نسلم بها في حياتنا دون تحقيق مباشر. ويرجع ذلك الى سببين :الأول أنها تساعدنا على اختصار الوقت في حياتنا، فالسبل المباشرة للتحقيق تؤدي مع الوقت الى تراكم كم هائل من الحقائق المتناغمة التي نتقبلها ونسهو عن تحقيقها ونتداولها فيما بيننا." فأنت تقبل تحقيقي لفكرة ما وأنا أقبل تحقيقك لأمر آخر.. وهكذا. لكن المعتقدات التي يقوم عليها الدليل بطريقه محسوسة على يد شخص ما ،هي الدعائم التي يقوم فوقها البناء كله ."[١٢٥] والسبب الآخر في قبول هذا النوع من التحقيق: أن جميع الأشياء- في عالمنا -توجد في فئات وأنواع ولا توجد فرادى ، بحيث يصبح تحقيق أفكارنا لمرة بطريقة مباشرة على عينة واحدة من فئة أو نوع ممكناً تطبيقه على عينات أخرى بدون تحقيق. يقول : "العقل الذي يعتاد التنقيب عن نوع الشيء الماثل أمامه ويتصرف بمقتضى قانون النوع مباشرة ، دون أن يتوقف للتحقيق واقامة الدليل سيكون عقلاً صحيحاً أو- حقيقياً – في تسع وتسعين حالة من حالات الطوارئ الأمر الذي يثبت أنه كذلك ، بدليل مسلكه الملائم لكل شيء يصادفه دون أن يلقى نقضاً أو دحضاً . "[١٢٦]

و يشبه جيمس تقبلنا لمثل هذه الحقائق وتداولها بالنظام المالي القائم على الاستدانة -نظام الائتمان وفتح الحساب- فإذا كان كل نظام مالي يفترض أن يكون له رصيد قائم ،كذلك أفكارنا ومعتقداتنا لها رصيد سابق، طالما أن الناس يتقبلونها ويتداولونها وتحقق لهم فوائد ومميزات. " أفكارنا واعتقاداتنا تصرف كما تصرف أوراق النقد مادام لم يتحداها أي شيء، وبشرط أن لا يوجد من يرفضها.[١٢٧] ويذهب الى أن انتفاء أو غياب مثل هذا النوع من التحقيق سوف تصبح بدونه الحقيقة كالنظام المالي الذي ليس له رصيد على الإطلاق . مثال ذلك: ساعة الحائط، التي نستعملها وننتفع بها وننظم أوقاتنا بواسطتها ،دون أن يكون لدينا أدنى فكرة عن كيفية تركيبها أو طبيعة عملها - مالم يكن الشخص صانع ساعات- أي أننا سمحنا لفكرتنا أن تأخذ صفة أنها صحيحة مع أننا لم نحاول التحقيق المباشر. ويرجع ذلك الى أننا اعتدنا على استعمال الشيء القائم على الحائط كساعة ننظم بها أوقاتنا وننتفع بها. وفي مثال آخر يذكر جيمس أننا نفترض وجود اليابان ،دون

---

[125] A .J .Ayer ,philosophy in the twentieth century,p:81

[١٢٦] جيمس ،البراجماتية ،ص:٢٤٦

[127] A .J .Ayer, philosophy in the twentieth century ,p:81

أن يسبق لنا أن ذهبنا الى هناك. " إن الإثبات والتحقيق والبرهنة غير المباشرة وكذلك المباشرة تمر حشداً . حيث تكفي البينة الظرفية الملابسة ، ففي وسعنا أن نمضي بدون مشاهدة عيان ."[١٢٨] وتكمن صحة الفكرة هنا في كون الفرض عملي، وتحقيقه لا يفضي الى تناقض ولا يتعارض مع اعتقاداتنا. وإنما يُسير أمورنا على نحو من التناغم . " إذا سار كل شيء على ما يرام وفي تناغم ، فنحن نستيقن بأن التحقق ممكن ، لدرجة تجعلنا نسهو عنه ونحذفه ، وعادة ما تثبت الأحداث ما يسوغ ذلك . "[١٢٩]

هناك كثير من الموضوعات التي تخطر في أذهاننا أفكار عنها ،قد لا تكون هامة في أوقات بعينها، لكنها قد تكون صحيحة بالنسبة لمواقف أخرى ممكنة أو محتملة مستقبلا .يرى جيمس أن مثل هذه الأفكار تظل كامنة في الذهن الى حين استدعائها كضرورة، فنمتلك بذلك رصيداً من الحقائق الإضافية في ذاكرتنا، توصف بأنها صادقة بالقوة ." إن الأفكار الصادقة هي تلك التي نستطيع أن نستوعبها ونتثبت من صحتها ونؤكدها ونتحقق منها ، والأفكار التي لم يتم التحقق منها بعد بالفعل تكون صادقة بالقوة ، وتوصف بأنها حقائق ممكنة "[١٣٠] أما إذا ارتبطت بمطلب عملي من مطالبنا أو بضرورة ملحة، يتم استدعائها لتؤدي عملا في العالم ،فيزداد نشاط الاعتقاد بها. "عندما تلهمنا لحظة ما في خبرتنا أيا ما كانت ،بفكرة صحيحة، فإن ذلك يعني أننا -عاجلا أو آجلا –سننغمس بتوجيه تلك الفكرة في جزئيات وتفاصيل الخبرة، ثانية، ونعقد رابطة أو صلة نافعة معها."[١٣١]

ويذهب جيمس الى أن تعاملنا لا يقتصر فقط على أمور الواقع، لأن هناك أفكارا ومجالات أخرى تحصل فيها معتقدات صحيحة وباطلة، ولا يتم التحقق منها بصورة مباشرة :مثل الحقائق الكلامية والتاريخية ؛فنحن نعتقد بفكرة وجود الإله لما لها من معنى يحدث اختلافا كبيرا في حياة المؤمن. كذلك الموضوعات العقلية وعلاقاتها والحقائق العلمية. "إن الحقيقي في أوجز عبارة" ليس سوى النافع الموافق المطلوب في سبيل تفكيرنا، تماما كما أن الصواب ليس سوى الموافق النافع المطلوب في سبيل مسلكنا."[١٣٢] فالحقائق الكلامية عبارة عن مخزون من الأفكار والأدلة والتحقيقات التي شيدت كلامنا بواسطة التواصل بين الأفراد ،واصبحت متاحة لمنفعة الانسان وفائدته ، وكثير من هذه الأفكار لا يمكن التحقق منها بصورة مباشرة .والحقائق التاريخية لا يمكن لعقولنا أن تنسخها أو تحاكيها ،لأن تيار الزمن لا يمكنه العودة الى الخلف إلا شفهياً ولفظياً أو بواسطة الآثار والنتائج لما احتواه الماضي وأضمره. والاتفاق مع الألفاظ سوف يبين لنا أن أفكارنا عن الماضي وأحداثه صحيحة ، وتبقى متضمنة وملتحمة بكل شيء حاضر. وكما هو الحاضر صحيح وحقيقي ، فكذلك كان الماضي .ويؤكد جيمس على "أن كل السبل الصحيحة لابد وأن تؤدي الى وجه خبرات محسوسة يقوم عليها الدليل بصفة مباشرة في مكان ما، نسخته أفكار شخص آخر."[١٣٣]

---

[١٢٨] جيمس ،المرجع السابق ،ص:٢٤٤

[١٢٩] المرجع السابق ،ص:٢٤٥.

[١٣٠] فريدريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة " من بنتام الى رسل" ،ص:٤٨٤

[١٣١] جيمس،البراجماتية،ص:٢٤٢

[132] William James, The Meaning of Truth ,p:3

[١٣٣] جيمس ،البراجماتية،ص:٢٤٥

والحقائق العلمية عبارة عن فروض، تم التحقق منها عن طريق الملاحظة والتجربة .ومثل هذه الفروض تنتج عن إحداث نوع من التوازن بين الحقائق السالفة وبين بعض الواقع المستحدث أو الخبرات الجديدة . بالإضافة الى تجاوز بعض قواعد البداهة والاعتقاد بالماضي . وتؤدي في النهاية الى هدف محسوس معقول على نحو ما ، بحيث يمكن اقامة الدليل عليه على نحو دقيق . فالأفكار العلمية مثلا تفسر الواقع على أنه يتألف من الأثير والذرات والالكترونات والطاقة .ولا تمثل هذه المصطلحات شيئا موضوعيا أو تنوب عنه ،لكن استخدامنا لها يؤدي بنا الى طريق محسوس ومنطقي على نحو ما، بحيث يمكن تحقيقه واقامة الدليل عليه .وهذا هو معنى قول جيمس بأن النظرية تعمل "إن الحقيقة في العلم هي ما تعطينا الحد الأعلى الممكن من كمية التعويض والترضية والوفاء والسداد والغبطة بما في ذلك الذوق ، ولكن الموافقة والانطباق على كل من الحقيقة السابقة والواقع المستحدث هو دائما أكثر المطالب تعسفا وصلفا. "[١٣٤] كذلك الحقائق العقلية لا يمكن وصفها بأنها ناقصة أو أنها لا معنى لها .لأنها تشكل الغالبية العظمى من الحقائق التي نعيش بها وعليها. يقول جيمس: " وهكذا نجد عقلنا محشورا كالإسفين أو الوتد بشكل محكم ومتوتر: بين إلزامات وإجبارات النظام الحسي الادراكي، وبين إلزامات وإجبارات النظام المثالي. فأفكارنا يجب أن تتفق مع الوقائع والحقائق، سواء أكانت هذه الحقائق ملموسة أم مجردة.."[١٣٥]

ويؤكد جيمس على أن الشيء الضروري والجوهري في عملية الاتفاق بالنسبة للحقائق المختلفة التي نمر بها ،هو مسألة الاهتداء الى الحقيقة أو الافضاء اليها مباشرة أو الاقتراب منها على نحو تفاعلي في الأداء معها ، بحيث يتم تناولها أو شيء مرتبط بها على أحسن وجه سواء على نحو عملي أو عقلي . "إن الاتفاق في أوسع معنى، مع حقيقة أو واقع لا يمكن أن يعني إلا الاهتداء؛ إما مباشرة إليها على خط مستقيم، وإما الى مكتنفاتها أو مناهزتها وملامستها عمليا لدرجة تمكن من الإمساك بها أو بشيء مرتبط بها على نحو أحسن وأوفى مما لو اختلفنا معها. أحسن إما عقليا وفكريا وإما عمليا واجرائيا "[١٣٦].كذلك يعني الاتفاق أن لا يأتي شيء معارض أو مناقض لتلك الحقيقة ، ليتدخل في الطريق الذي تقودنا إليه أفكارنا .

التعقيب :

أولا- عرفت الفلسفة التجريبية في الفكر الحديث ، كنظرية في المعرفة، اهتمت بالتجربة الحسية والتعدد والاعتماد على الخبرة الحسية. وفي فترة لاحقة مهدت لظهور التجريبية الراديكالية عند وليم جيمس .

- تتألف التجربة عند "جون لوك" من جانبين ؛أحدهما حسي ،يتمثل في تلقي المدركات الحسية من العالم الخارجي و الجانب الآخر باطني يعبر عن تأمل الذات للمعطيات الحسية وتكوين صور ذهنية عنها. ومن ثم فإن التجربة عند لوك لا تقتصر على الجانب الحسي كما ذهب هيوم، ولكنها عبرت عن المضمون الفعلي الذي يزود العقل بالأفكار بعيدا عن أية مسلمات أو مبادئ عقلية .

---

[١٣٤] المرجع السابق ،ص:٢٥٦-٢٥٧ .
[١٣٥] المرجع السابق ،ص:٢٤٩-٢٥٠.
[١٣٦] المرجع السابق ،ص:٣٥٣

- وعبرت رؤية جيمس للتجربة عن نسق فلسفي- ظل جيمس قلق بشأنه لفترة طويلة-أراد من خلاله أن يبين أهمية التجربة الحسية وقيمة المنهج البراجماتي وأهمية معالجة المشكلات الميتافيزيقية ،التي يصعب النظر إليها من خلال المنهج التجريبي. لذلك ميز تجريبيته عن التجريبية الانجليزية، بمسمى "التجريبية الراديكالية" . وفيها نظر للتجربة من منظور سيكولوجي ،تصور فيه العالم الذي نوجد فيه كأشياء ومفكرين معا ،كعالم مشترك يشمل كل ما يمر به الانسان من خبرات ،"عالم من تجربة خالصة ". ومن ثم يمكن القول بأن رؤية جيمس للتجربة أكثر اتساعا من الفهم التقليدي لها.

ثانيا- أكد جيمس على أهمية المدركات الحسية باعتبارها المادة الأولية التي يتشكل منها كل شيء ،ومنها تتألف التجربة التي تعبر عن الخبرة الانسانية المشتركة. وهي ما عرف عند جيمس بالخبرة الخالصة. ورأى بأنها متداخلة ومتنوعة ومتغيرة باستمرار في ميدان الوعي ، وتقبل التشكيل والتعديل بما يتناسب مع أغراضنا العملية، كما أنها تخضع للتطور العلمي والنقد الفكري. ونظر جيمس للإحساسات بوصفها منبهات للتفكير و السلوك.

ثالثا – اهتم جيمس بالتصورات وبين أهميتها في الحياة الانسانية.وقدم تصورا مختلفا لطبيعتها يتفق مع موقفه من التجربة ؛ذهب فيه الى أن معارفنا نشأت من تراكم المدركات الحسية النافعة التي بدأ الانسان يهتم بها لأغراضه العملية، ثم نمت بالتدريج ،ومن هذه المدركات وجدت التصورات التي قام بتجريدها من تيار المدركات الحسية، و تأصلت في حياته لأنها نافعة ومفيدة على المستويين العملي والنظري. وذهب الى أن جميع أنماط التفكير التي نلاحظها في أنفسنا ترجع الى ارتباطها الجوهري بالمدركات الحسية ودور الإرادة فيها .وعلى الرغم من إقراره بأهمية التصورات إلا أنها –في رأيه-لا تحظى بالسيادة ،ولا يمكن لها أبدا أن تحل محل الإدراك الحسي.

رابعا- سلم جيمس بأهمية المدركات الحسية ،ولم يلغ دور العقل النظري . ورأى أن الموقف الوسط بين وجهتي النظر العقلية والتجريبية هو ما يجب أن يأخذ به المفكرون .و حاول التوفيق بينهما، ولكن بصورة مختلفة تتفق مع كانط حول أهمية التجربة ،ولكن وفق رؤية سيكولوجية لطبيعة التجربة استبعد منها أي دور تركيبي للعقل. أكد فيها على الارتباط الوثيق بين كل من التصورات العقلية والمدركات الحسية. وقد عبر عن طبيعة العلاقة الوثيقة بينهما من خلال نظريته في الثنائية ،ونظريته في الصدق:

-اعتقد جيمس لفترة من الزمن بصحة التمييز بين العقل والموضوع "فكرة الثنائية" التي سادت الفكر الحديث .لكنه في فترة لاحقة تخلى عن ذلك ،ونظر لهما بمنظور سيكولوجي يقوم على افتراضه للتجربة أو الخبرة بأنها المادة الأولية التي يتألف منها كل شيء في العالم، وأنها تسبق من الناحية المنطقية أي تمييز بينهما. وأن كلاً من الذات والموضوع متضايفان ومتداخلان داخل محتوى الخبرة ، ولا يمكن الفصل بينهما. وهما في رأيه مظهران لشيء واحد أساسي هو التجربة ،على هيئة تفكير أو على صورة شيء مادي.

- عرف جيمس الصدق بأنه العلاقة التي تربط بين الفكرة وموضوعها، وتحدث بينهما نوع من التوافق الذي يحقق النفع و ييسر سبل الحياة. ورأى أن الصدق يحدث للفكرة وليس صفة ملازمة

لها، ويمثل جزءا من الخبرة ويقبل الإضافة والتعديل .لأن الأفكار مرتبطة بعالم الخبرة المتغير، وتهدف الى معالجة الواقع. ووصف جيمس الطريق الذي تسلكه الفكرة وهي تؤدي وظيفتها ،وتتجه الى الموضوع المحسوس لتتفق معه، أو تثبت عدم صحتها.فإذا ما تحققت الفكرة ونتج عنها فرق عملي يحسه الشخص ويلمسه في حياته الواقعية ويحقق له الرضا، كانت الفكرة صحيحة وصادقة .وتصبح النتائج الايجابية التي ترتبت عنها هي الدافع وراء اتباعها واقتفاء أثرها. وهذا هو الطابع النفعي الذي اتسمت به فلسفة جيمس. واتفاق الفكرة مع الموضوع –حسب جيمس- يتم بمعنيين: الأول ، تصل فيه الفكرة بطريقة مباشرة الى موضوعها بصورة عملية. والمعنى الثاني، تأخذ فيه الفكرة صفة صحيحة مع أننا لم نتحقق منها بصورة مباشرة. مثل المعتقدات الدينية والحقائق الكلامية والتاريخية والموضوعات العقلية وعلاقاتها والحقائق العلمية.

خامسا -رفض جيمس التصور العقلي لطبيعة الوعي ، وانكر وجود العقل باسم التأمل والتجريد، أو أن ينسب له مبادئ فطرية تمكنه من ادراك الواقع الخارجي ومعرفته. ولكنه لم ينكر أهمية العقل ورأى له وظيفة نظرية تتفق مع فلسفته التجريبية. تتمثل في عملية الادراك التي تعبر عن دور الأفكار في التجربة. وتهدف الى فهم التجربة وخلق الأفكار بدافع من إرادة الانسان ورغباته.فالعقل يدرك الموضوعات الخارجية في تيار الخبرة، وفي نفس اللحظة يشعر بنفسه (تأمل ذاتي). وهنا يختلف جيمس عن النظرة التقليدية التي تفصل بين ملكة الادراك ورغبات الفرد وغاياته وإن كانت لا تنفيها .ولذلك وصفت فلسفته بأنها ذات نزعة لاعقلانية -Anti intellectualist .

سادسا- اتفق جيمس مع لوك في أن الوجود الحقيقي هو وجود الجزئيات وأن الاحساس هو الحد الذي نستمد منه معارفنا لذلك وصفت فلسفته بأنها فلسفة اسمية لا تؤمن إلا بالجزئي أو الفردي . واختلف عنه في الأفكار التالية:

-الواقع في فلسفة جيمس متنوع ومتعدد ويعبر عن تجربتنا أو خبرتنا ،ويشمل ثلاثة عناصر متداخلة في تيار الخبرة هي: الأشياء الخارجية التي ندركها بحواسنا، والعلاقات الكائنة بين هذه الأشياء بوصفها جزء لا يتجزأ من التجربة، وتخضع للإدراك الحسي مثلها مثل الأشياء. بالإضافة الى جميع التجارب الماضية والمعارف السابقة التي اكتسبها الانسان وتوجد في الوعي. بينما يقتصر الواقع عند لوك على العالم الخارجي، الذي ندركه بواسطة الحواس. والعلاقات في رأيه تتم بين الأفكار وهي من صنع العقل وليس لها وجود في الواقع.

- رأى جيمس أن المدركات الحسية ذات طبيعة متنوعة وهي متصلة ومتغيرة وليست مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض كما ذهب لوك.

-أخذ جيمس على لوك عدم اهتمامه بالتصورات، و رؤيته للعقل بأنه صفحة بيضاء وأنه مجرد مستقبل للانطباعات الحسية .

سابعا- لا تعبر فلسفة جيمس التجريبية عن نظرية في المعرفة فحسب ولكنها شملت كذلك رؤية تعددية للعالم. مع الاشارة الى أن جيمس لم يعرض لمبحث متكامل تحت مسمى نظرية المعرفة، ولكننا نجد ضمن نظرياته المتنوعة التي شملتها فلسفته التجريبية إجابات عن التساؤلات التي تندرج ضمن مبحث المعرفة ؛فقد ذهب الى أن الفهم المشترك هو مصدر المعرفة الذي يؤلف خبرتنا، التي تنمو بالتدريج، بالإضافة الى التراكمات المعرفية في حياتنا والتي يمر بها كل من العلم والتفكير الفلسفي . ولأن العقل أداة كل فيلسوف في عملية التفكير ،فإن تصنيفه (تجريبي أم

عقلاني) يأتي وفقا لما أعطاه للعقل من دور في عملية إدراكه للأشياء. ورأينا كيف ربط جيمس في فلسفته بين العقل والتجربة ودور الارادة الانسانية . ويمكن وصف موقفه من المعرفة ؛ بأنها عبارة عن رد الفعل الذي يقوم به العقل لمواجهة حاجاته العملية وتحقيق علاقات مفيدة مع الواقع أو الخبرة .

المصادر والمراجع:

أولا : المصادر:

١. افلاطون، محاورة "ثياتيتوس" ،ت: د. اميرة حلمي مطر، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٢. ديفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية ، ت: د. موسى وهبة، دار الفارابي-بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٨م .
٣. رينيه ديكارت، مبادئ الفلسفة،(سلسلة النصوص الفلسفية"٦")، ت: د.عثمان امين، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة،١٩٩٣م .
٤. وليم جيمس، البراجماتية، ،ت: محمد على العريان، تقديم: د. زكي نجيب محمود، المركز القومي للترجمة-القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة العدد(١٢٧٠)،عام ٢٠٠٨م.
٥. وليم جيمس، بعض مشكلات الفلسفة ،ت: د. محمد فتحي الشنيطي، مراجعة د. زكي نجيب محمود، وزارة الثقافة والارشاد القومي ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر،١٩٦٣م.
٦. وليم جيمس ،عالم متعدد، ت:احمد الانصاري، مراجعة د. حسن حنفي، المركز القومي للترجمة-القاهرة، الطبعة الأولى ،٢٠٠٩م.

ثانيا: المراجع

٧. د. ابراهيم مصطفى ابراهيم، نقد المذاهب المعاصرة (١)،دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية، ٢٠١٥م.
٨. احمد فؤاد الأهواني ،جون ديوي، سلسلة نوابغ الفكر الغربي(١١)،دار المعارف-مصر.
٩. ا.م بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في اوروبا، ت: عزت قرني سلسلة عالم المعرفة العدد (١٦٥)،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت،١٩٩٢م.
١٠. انصاف حمد، المعرفة والتجربة "دراسة في نظرية المعرفة عند ديفيد هيوم"، سلسلة قضايا فلسفية(٣)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق -سورية، ٢٠٠٦م .
١١. باركلي ، المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، ترجمة وتقديم :د. يحي هويدي، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة، سلسلة النصوص الفلسفية(٧).
١٢. برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية(الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة)، ت:د.محمد فتحي الشنيطي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.

١٣. برتراند رسل، حكمة الغرب "الفلسفة الحديثة والمعاصرة"، ت: د. فؤاد زكريا ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ،سلسلة عالم المعرفة العدد(٣٦٥)، الجزء الثاني طبعة ثانية، ٢٠٠٩م.
١٤. برتران سان سرنان، العقل في القرن العشرين، عرض وتقديم؛ أماني البداح، ،سلسلة عالم الفكر(التحولات في الفكر الفلسفي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ،مجلد (٣٠)،٢٠٠٢م .
١٥. بيتر كاز، تاريخ الفلسفة في امريكا خلال ٢٠٠عام، ت:حسني نصار، مراجعة: د. مراد وهبة، مكتبة الانجلو المصرية،١٩٧٩م.
١٦. تشارلز موريس، رواد الفلسفة الامريكية ، ت:د.ابراهيم مصطفى ابراهيم ،مؤسسة شباب الجامعة- الاسكندرية-عام ١٩٩٦م.
١٧. جون دن ،جون لوك "مقدمة قصيرة جدا ،ت: فايقة جرجس حنا، مراجعة :هبة عبد المولى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة –القاهرة، الطبعة الأولى،٢٠١٦م.
١٨. جون ديوي، أنواع من التفكير، ت: فاطمة الشايجي، مراجعة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام ،الدولية للطباعة-القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
١٩. جيرار ديلودال، الفلسفة الامريكية، ت: د. جورج كتوره، د. الهام الشعراني، مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٩م.
٢٠. د. دعاء عبد النظير، الأسس اللاعقلانية في الفكر الفلسفي المعاصر، كلمة للنشر والتوزيع،الاسكندرية-مصر،٢٠١٠م
٢١. دنكان بريتشارد، ما لمعرفة؟ ،ت: مصطفى ناصر ،سلسلة عالم المعرفة العدد(٤٠٤)،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت ،٢٠١٣م.
٢٢. رالف بارتون بيري، أفكار وشخصية وليم جيمس ، ت:محمد علي العريان ،تقديم: رمضان بسطاويسي المركز القومي للترجمة-القاهرة، سلسلة ميراث للترجمة العدد(٢١٣٠)، ٢٠١٣م.
٢٣. د. زكريا إبراهيم ،دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول-مكتبة مصر للطباعة.
٢٤. د. زكي نجيب محمود، احمد أمين، قصة الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، الجزء الأول، الطبعة السادسة،١٩٨٣م .
٢٥. د. زكي نجيب محمود، من زاوية فلسفية، دار الشروق-القاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٨٢م
٢٦. د. زكي نجيب محمود ،برتراند رسل، سلسلة نوابغ الفكر الغربي(٢)،دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
٢٧. زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٨٧م.
٢٨. س. ي .جود، مدخل الى الفلسفة المعاصرة ، ت: محمد شفيق شيا، مؤسسة نوفل- بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨١م.
٢٩. د. عادل عوض، حقيقة الوعي الانساني "بين الوحدة والتعدد أو الاتصال والانفصال"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الاسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م .
٣٠. د. عبد الأمير الشمري، دراسات مختارة في الفلسفة الغربية المعاصرة، مكتبة مدبولي- القاهرة،٢٠١٢م.

٣١. د. عبد الوهاب جعفر ،مقالات الفكر الفلسفي المعاصر، دار المعرفة الجامعية-الاسكندرية،١٩٨٨م .
٣٢. د. عزمي عبد الفتاح اسماعيل البشندي، الفلسفة والواقع الانساني "دراسة في الفكر الفلسفي الحديث و المعاصر"،٢٠٠١م،(لا يوجد دار نشر).
٣٣. د. فاروق عبد المعطي، جون لوك "من فلاسفة الانجليز في العصر الحديث"، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى،١٩٩٣م.
٣٤. فريدريك كوبلستون ، تاريخ الفلسفة المجلد الثامن" من بنتام الى رسل" ،ت: محمود سيد احمد، مراجعة وتقديم: امام عبد الفتاح امام، المشروع القومي للترجمة، القاهرة ،العدد ١٣٣٠، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
٣٥. د. محمد ثابت الفندي ،مع الفيلسوف، دار النهضة العربية-بيروت، عام ١٩٨٠م .
٣٦. د. محمد عبد الحفيظ ، الفلسفة والاعتقاد الديني "وليم جيمس نموذجا"، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر-الاسكندرية- مصر، طبعة ٢٠١٧م .
٣٧. د. محمد فتحي الشنيطي، المعرفة، مكتبة القاهرة الحديثة للطباعة والنشر ،الطبعة الثالثة،١٩٦٢م
٣٨. د. محمد فتحي الشنيطي، جون لوك "دراسة نقدية لفلسفته التجريبية"، دار الطلبة العرب للطباعة والنشر-بيروت، الطبعة الأولى،١٩٦٩م
٣٩. د. محمد فتحي الشنيطي، مشكلات فلسفية "كارل ياسبرز، ووليم جيمس" ،مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى ،عام ١٩٥٧م.
٤٠. د. محمود فهمي زيدان، نظرية المعرفة "عند مفكري الاسلام وفلاسفة الغرب المعاصرين"، دار النهضة العربية- بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٩م.
٤١. د. محمود فهمي زيدان ،وليم جيمس ،دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية-مصر، الطبعة الأولى،٢٠٠٥م.
٤٢. د. محمد مهران رشوان ،مدخل الى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع-القاهرة،١٩٨٤م.
٤٣. هربرت شنيدر، تاريخ الفلسفة الامريكية ، ت:د.محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية ،١٩٦٤م.
٤٤. وليم كيلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، ت:محمود سيد احمد، تقديم و مراجعة د. إمام عبد افتاح إمام ،المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة،٢٠٠١م .
٤٥. د. يحي هويدي، قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للنشر والتوزيع،القاهرة،١٩٩٣م .
٤٦. يعقوب فام، البراجماتيزم أو مذهب الذرائع، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-الطبعة الثانية،١٩٨٥م.
٤٧. د. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم –بيروت ،(لا يوجد تاريخ للنشر) .

ثالثا: المعاجم والموسوعات

٤٨. جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة للطباعة والنشر-بيروت، الطبعة الثالثة،٢٠٠٦م.

٤٩. روزنتال، ن .يودين، الموسوعة الفلسفية" وضع لجنة من الاكاديميين السوفييت" ، ت:د.سمير كرم، دار الطليعة-بيروت، الطبعة السابعة،١٩٩٧م .
٥٠. د. عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية ، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٤م.
٥١. د. عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية للطباعة والنشر-القاهرة، الطبعة الأولى،١٩٩٠م.

رابعا: المصادر والمراجع الأجنبية

-John Locke ,An Essay Concerning Human Understanding (Scribd موقع الكتروني)

-William James ,Radical Empiricism, Longmans ,Green ,1912 ,(www. Gutenberg.org>eBooks)

-William James, The Meaning of Truth , Project Gutenberg eBook,2002. (www. Gutenberg.org> eBooks) .

-A .J .Ayer, philosophy in the twentieth century ,vintage books ,new york,1984 .

-David Stewart ,H. Gene Blocker, Fundamentals of Philosophy, second edition ,Macmillan Publishing Company ,New York.1987

- G .Wright Mill ,Sociology Pragmatism ,A Galaxy book ,New york,1966

-Ruth Anna Putnam ,The Cambridge Companion to William James ,Cambridge University Press,1997

- Samuel Enoch Stumpf ,Socrates to Sartre "A history of Philosophy", fifth edition ,MC Grow –Hill ,Inc .New York,1993

-Samuel Enoch Stumpf ,Philosophy "History& Problems", fourth edition ,McGraw-Hill Book Company ,new york,1989